قصة سيدنا موسى
مع العبد الصالح "الخضر"

"دراسة تحليلية بلاغية"

أ.د/ عادل محمد محمد الأكرت

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية اللغة العربية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أودع فى كتابه المبين أحسن القصص لنهتدى بما فيها من حكم، ونتعظ بما فيها من عبر ، والصلاة والسلام على خير خلقه وإمام انبيائه ورسله سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فقد عايشت قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح الخضر سنوات، وذلك من خلال تدريس مادة التدريبات البلاغية لطلاب كلية اللغة العربية فى الجامعة الاسلامية العالمية باسلام آباد، وأثمرت هذه المعايشة هذا البحث تحت عنوان "قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح الخضر دراسة تحليلية بلاغية"، وقد التزمت بالمنهج التحليلي، ويقوم هذا المنهج على ما يأتى:

١- بيان وجه المناسبة بين اسم السورة وما ورد فيها من قصص، وعلاقة القصص الثلاث ببعضها، وعلاقة هذه القصة بما قبلها وما بعدها.
٢- الكشف عن سر عدم تكرار هذه القصص، كما تكرر غيرها.
٣- إظهار العلاقة بين الجمل والآيات، وبيان وجه الربط بينها.
٤- شرح لغوى للكلمات التى تحتاج إلى شرح لبيان المقصود بها.
٥- إبراز دور اللفظة من جهة معناها المعجمى وهيئة صيغتها فى إحداث المزية، وبيان وجه إيثار لفظة على لفظة وصيغة على صفيه على حسب المقامات.
٦- بيان أثر الإعراب فى توجيه المعنى المراد، والكشف عن سبب ترجيح إعراب على إعراب.

٧- إبراز بعض الأسرار البلاغية على هدى نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر، وإرجاع هذه الأسرار إلى المصطلحات البلاغية فى كتب المتأخرين من البلاغيين، مع الإشارة إلى وجه استشهاد البلاغيين ببعض التراكيب فى القصة لتقرير المصطلحات البلاغية.

٨- العناية بالكشف عن متشابه التراكيب، وبيان خصائص كل تركيب، وسر إيثار التركيب بالمقام الذى جاء فيه.

٩- إبراز ما فى هذه القصة من آداب وعظات؛ لنهتدى بها فى سلوكنا وتعاملاتنا.

وقد استعنت بما حوته كتب التفاسير وكتب البلاغيين لاستخراج سمات التراكيب فى هذه القصة.

فالله أسأل أن يرزق هذا العمل القبول، وأن ينفع به،وأن بغفر لى زلة الفهم وعثرة اللسان، وحسبى انى لم أدخر جهداً، والله سبحانه هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

د. عادل محمد الأكرت

تمهيد

سبب قصة سيدنا موسى – عليه السلام – مع العبد الصالح الخضرأن سيدنا موسى – عليه السلام – كان شغوفاً بالعلم، شديد الرغبة فى تحصيل المزيد منه، باحثاً عن العلماء فى أى مكان كانوا، مهما كلفه ذلك من جهد وعناء.

فقد ورد فى حديث أبى بن كعب ، سمعت النبى – صلى الله عليه وسلم– يقول: "بينما موسى فى ملأ من بنى اسرائيل إذ جاء رجل ، فقال: أتعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله تعالى إلى موسى بلى عبدنا خضر، فسأل السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر، فقال فتى موسى لموسى أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، قال موسى ذلك ما كنا نبغى، فارتدا على آثارهما قصصا، فوجدا خضرا، فكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه"(١).

فعقد سيدنا موسى عليه السلام العزم على السفر إلى مكان هذا العالم حتى يلقاه، ولو كلفه ذلك السفر زمنا طويلا، واصطحب معه فتاه حتى وجدا هذا العالم بعد أن حل بهما التعب والإعياء.

وعرض سيدنا موسى عليه السلام على الخضر أن يعلمه بعضا من العلم الذى عنده، وهو علم بعض الأمور الغيبية، أى علم بواطن الأمور وحقائقها، وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم، فأجابه الخضر بأنه لا يطيق الصبر على صحبته حتى يتعلم منه، مهما كانت رغبته، ومهما كانت درجة صبره؛ لأنه سيرى أموراً

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى، كتاب العلم، ١/١٦٠، ط دار الكتاب الجديد، لجنة إحياء التراث الاسلامى.

فى ظاهرها مناكير وشر، فلا يستطيع السكوت على فعلها أمامه، وأجاب سيدنا موسى على هذا الحكم بأنه سيكون صابراً مطيعا له فى كل أمر، فأجاب الخضر بالموافقة على قبول طلب سيدنا موسى بمصاحبته والتعلم منه على شرط: وهو عدم مبادرة موسى الخضر بالسؤال عن شيء رآه وخفى عليه وجه الحكمة فيه. وقبل موسى هذا الشرط، وبدأت الصحبة، ووقعت فيها أحداث عجيبة غريبة، لم يسكت سيدنا موسى على رؤيتها، ولم يتحقق الشرط الذى شرطه الخضر عليه، وهذا ما أدى إلى انتهاء الصحبة بينهما مع الوعد بتأويل هذه الاحداث ومعرفة حقيقتها.

وقصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون تكررت عشرات المرات(١).

والملاحظ أن قصته مع الخضر لم تتكرر، حيث ذكرت فى موضع واحد فى سورة الكهف، ولعل السر فى عدم تكرارها أن القصة فيها أحداث عجيبة غريبة لا تتفق مع حكم الظاهر، وهذا مما يزيد فى تعلق النفوس بها والرغبة فى معرفة الحكمة فى حدوث هذه الافعال، وهذا يكفى لتثبيتها فى النفوس، وتمكينها فى القلوب، فلا تحتاج إلى تكرار كغيرها من القصص، هذا بالإضافة إلى أن أحداث القصة لا تتعلق بصميم رسالة سيدنا موسى إلى فرعون وقومه، ودعوته إلى عبادة الله وحده، ومواجهة طغيان فرعون وجبروته على بنى إسرائيل، واتهامه موسى عليه السلام بالسحر، والتآمر لقتله، وهلاك فرعون وقومه، ولعل هذا هو السبب فى عدم تكرار قصته مع الرجل القبطى الذى وكزه موسى فقضى عليه استجابة لاستغاثة الرجل الذى من شيعته، وكذلك قصة سقى موسى لابنتى شعيب، فهذه الاحداث لا

(١) البرهان فى علوم القرآن: ٢٥/٣، وينظر: الإتقان فى علوم القرآن: ٨٩/٢.

تحتاج إلى تكرار ؛ لأن الرسالة التى أرسل بها سيدنا موسى لا تتوقف عليها ، فلا تأثير لها فى أصول دعوته.

والملاحظ أن قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح الخضر هى القصة الثانية من ثلاث قصص ذكرت فى سورة الكهف، ولم يتكرر ذكرها: الاولى قصة أصحاب الكهف، والثانية قصة سيدنا موسى مع الخضر، والثالثة قصة ذى القرنين، وتوسطت قصة سيدنا موسى مع الخضر بين قصتى أصحاب الكهف وذى القرنين، مع أنها ليست من الثلاث التى سئل عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لأن الأسئلة الثلاثة التى سئل عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهى أمر الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول، والرجل الطواف الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها وحقيقة الروح[١]تشترك مع قصة موسى مع الخضر فى أنها تشتمل على حقائق خفية غير معلومة، فهى أشبه بالكهف الذى سميت به السورة، فهو كهف للمعلومات قبل أن يكون كهفاً اختفى بداخله هؤلاء الفتية، كما أن القصص الثلاث تشترك فى أنها قائمة على السفروالانتقال إلى مكان يتحقق فيه المقصود، قال الطاهر بن عاشور: "وقدم لقصة ذى القرنين قصة أهم منها، وهى قصة موسى والخضر – عليهما السلام – لأن كلتا القصتين تشابهتا فى السفر لغرض شريف. فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض ، وموسى – عليه السلام – خرج فى طلب العلم، وفى ذكر قصة موسى تعريض بأخبار بنى إسرائل إذ تهمموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم، ونسوا خبراً من سيرة نبيهم"[٢].

(١) تنظر قصة هذه الأسئلة فى تفسير القرطبى، المجلد السادس/ ٣٩٦٣، ٣٩٦٤.
(٢) التحرير والتنوير: م/ ٧، ج /١٥/ ٢٤٥، ٢٤٦.

ووجه مناسبة هذه القصة لما قبلها أنها مثل فى ضد القصة التى قبلها، حيث جاءت بداية هذه القصة معطوفة على قصة خلق آدم عليه السلام، وأمر الله سبحانه الملائكة بالسجود لآدم، وامتناع إبليس عن السجود لآدم كبراً وحسداً واعتزازاً بعنصره الذى خلق منه، وجهلاً بأسباب الفضائل بين الخلق، فناسب ذلك أن ياتى عقبها قصة مقابلة لها، قال الطاهر بن عاشور موضحا وجه المناسبة بالتقابل بين القصتين: "لما جرى ذكر قصة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له، وما عرض للشيطان من الكبر والاعتزاز بعنصره جهلاً باسباب الفضائل، ومكابرة فى الاعتراف بها، وحسداً فى الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلاً لأهل الضلال عبيد الهوى والكبر والحسد، أعقب تلك القصة بقصة هى مثل فى ضدها؛ لأن تطلب ذى الفضل والكمال للازدياد منهما وسعيه للظفر بمن يبلغه الزيادة من الكمال اعترافا للفاضل بفضيلته، وفى ذلك إبداء المقابلة بين الخلقين، وإقامة الحجة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين المؤمنين والكافرين، وفى خلال ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتسرية للمتقين"[١].

(١) المصدر السابق: م/٧ جـ ٣٥٨/١٥، ٣٥٩.

بداية اللقاء وعرض المطلوب

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا .قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا .قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا .قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1]. صدق الله العظيم

وجد سيدنا موسى – عليه السلام– وفتاه العبد الصالح المعروف بالخضر فى المكان الذى حدده الله سبحانه له، وبدأت الآيات بتحديد صفات هذا العبد الصالح، ولم يذكره القرآن الكريم باسمه؛ لأن ذكر الاسم لا يتعلق به غرض فى أحداث القصة، والذى يتعلق به الغرض هو صفات هذا العبد الصالح، وهذا هو شأن القرآن الكريم فى الحديث عن بعض الأشخاص، انظر إلى حديثه عن اصحاب الكهف، حيث ذكر صفاتهم ولم يذكر أسماءهم، قال سبحانه: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا"[2]، وتأمل حديثه عن مؤمن آل فرعون "وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ..﴾[3].

(١) سورة الكهف: الآيات ٦٥ – ٧٠.
(٢) سورة الكهف: آية١٣، ١٤.
(٣) سورة غافر: آية ٢٨.

الفاء فى قوله تعالى "فوجدا" عاطفة ، عطفت فعل الوجدان على قوله ﴿ ... فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[١]، وأفادت الفاء أن وجدان العبد الصالح كان عقب ارتدادهما مباشرة من غير مهلة.

وعبر بالوجود دون الرؤية، لأن الوجود يدل على التمكن من الشيء[٢]، وأيضاً الوجود يدل على الحصول على الشيء الذي يبحث عنه ويسعى للوصول إليه، بخلاف الرؤية ، فإنها قد تكون مصادفة.

قوله "عبدا من عبادنا" تنكير كلمة "عبداً" أفاد التفخيم والتعظيم، واكد هذا التعظيم بعدة صفات: الصفة الاولى "من عبادنا" وإضافة عباد إلى ضمير العظمة المقصود به الحق سبحانه أضفت على العباد تشريفاً وتعظيماً، فهم عباد من نوع خاص، اخلصهم الله واصطفاهم، فكانوا عباداً ربانيين مختلفين عن بقية العباد، فكلمة "عباد" فى القرآن الكريم إذا جاءت معرفة بأل شملت الخلق كلهم، مؤمنهم وكافرهم، بارهم وفاجرهم، فالخلق جميعاً عباد الله، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ. رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ..﴾[٣] فالتعريف بأل الاستغراقية أفاد أن الرزق لجميع العباد الأتقياء منهم والأشقياء.

وإذا عرفت بالإضافة إلى الحق سبحانه وتعالى أفادت أنهم ممن اختصهم الله وشرفهم بالإضافة إلى جلاله، وبهذا يعرف السر فى مجيء التعريف بالإضافة هنا دون التعريف بأل – ، فلم يقل عبداً من العباد.

---

(١) سورة الكهف: آية ٦٤.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: للراغب الأصفهانى/٥٤٩.
(٣) سورة ق: آية ١٠.

وإذا كانت عبودية الانسان للإنسان تورث مذلة ومهانة فإن عبودية الإنسان لله سبحانه تورث عزا وشرفا وافتخارا.

ولعل السر فى مجيء النظم على تنكير "عبداً" ووصفه بكونه "من عبادنا"، ولم يأت بالإضافة من أول الأمر، فيقال عبدنا، ما ذكره الطاهر بن عاشور للإشارة إلى أن هذا الحال الغريب العظيم الذى ذكر من قصته ما هو إلا ممن أحوال عباد كثيرين لله تعالى، وما منهم إلا له مقام معلوم"[١].

والملاحظ أن التعبير القرآنى جاء بنون العظمة خمس مرات فى قوله "عبادنا" – "أتيناه" – "عندنا" – "علمناه" – "لدنا"، ولم يأت بلفظ الجلالة، فلم يقل من عباد الله؛ لأن المقام مقام الحديث عن عظمة الرحمة والعلم اللذين اختص الله سبحانه العبد الصالح بهما؛ لأنه من عباده العظماء.

الصفة الثانية: "آتيناه رحمة من عندنا"، اختلف المفسرون فى المراد بالرحمة، والجمهور على أنها الوحى والنبوة،[٢] وتنكير "رحمة" أفاد التعظيم والتفخيم، أى رحمة عظيمة لا يدرك كنهها، ووصفت الرحمة بكونها "من عندنا" زيادة فى التعظيم المفاد من التنكير، فهى رحمة خاصة، اختصه الله سبحانه بها، وتختلف عن الرحمة التى يتصف بها كل الخلق، وهى أيضاً من الله سبحانه، إلا أنها رحمة عامة أودعها الله فى جميع المخلوقات.

الصفة الثالثة: "وعلمناه من لدنا علما"، "علما" مفعول ثان لـ "علمناه" وليس مفعولاً مطلقاً؛ لأن المفعول المطلق يأتى مصدراً من الفعل العامل فيه ومصدر علم هو التعليم ، وليس العلم.

وأفاد تنكير "علما" التعظيم والتفخيم، و"من لدنا" فى الاصل صفة لـ "علما"، فلما قدم عليه أعرب حالاً، أى علمناه علما خاصا لا يدرك كنهه ولا

(١) التحرير والتنوير: م ٧ ، جـ/١٥، ٣٦٩.
(٢) روح المعانى: للالوسى، م/٩، جـ، ٤٦١/١٥.

يعلم إلا بتوقيفنا، وهو علم بعض الأمور الغيبية، ولدن ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات، وهى "أبلغ من "عند" وأخص"[١]، ولهذا عبر فى جانب الرحمة بـ "عند" لعموم الرحمة وشمولها، وعبر فى جانب العلم بـ "لدن"؛ لأن المراد به العلم الخاص، وهو علم الغيب، "لأن لدنى هو لما يليك"[٢]؛ وعبر بـ"علمناه" دون "آتيناه" للإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم"[٣].

هذه الصفات الثلاث حددت صورة العبد الصالح الخضر، فهو عبد من عباد الله الذين اختصهم الله بالرحمة والعلم الغيبى، فأطلعهم على علم بواطن الأمور، فهى صورة العالم الذى عنده نوع من العلم ليس عند سيدنا موسى، ولهذا تحمل سيدنا موسى مشاق السفر لأجل تلقى العلم منه.

وجاءت الرحمة من صفات العالم للإشارة إلى أن الرحمة من الصفات التى يجب أن يتحلى بها العالم، حتى يرفق على طالب العلم إذا بدا منه ما لايروق له.

طالب العلم يعرض طلبه بنفسه على العالم:

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، عرض سيدنا موسى على الخضر أن يكون تابعا له مقابل أن يعلمه بعضا من العلم اللدنى الذى علمه الله إياه، وجاء عرضه محملا بآداب طالب العلم، بحيث يستميل قلب المعلم نحوه، فيستجيب لطلبه مهما كانت الموانع.

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن: /٤٧٠.
(٢) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى: /٢٤٦.
(٣) روح المعانى: م/٩ ، جـ ١٥/٤٧٦.

تأمل التعبير بـ "له" فى قوله "قال له موسى" والفرق بين الجملة القرآنية وبين أن يقال قال موسى. الجملة القرآنية "قال له موسى" بزيادة "له" أفادت أن سيدنا موسى عليه السلام عرض بنفسه موضوعه على العالم، فلم يجلس ويرسل إليه خادمه برسالة فيها طلبه، وإنما أقبل عليه وقال له ذلك مباشرة بدون وسيط بينهما، وهذا يدل على شدة تواضع سيدنا موسى عليه السلام. وإنما أفاد التعبير بـ "له" أن سيدنا موسى عرض بنفسه طلبه لأن اللام الداخلة بعد فعل القول فى نحو: أقول لك، لام تعليل، أى أقول قولى لأجلك"[١].

والاستفهام فى قوله "هل أتبعك" قصد به العرض والملاطفة والاستئذان؛ "لأنه استفهام عن عمل نفس المستفهم"[٢]، قال القرطبى: "وهذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستزل المبالغ فى حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟"[٣]، وإنما كان كما ذكر القرطبى لأنه لم يعبر عن غرضه بأسلوب الامر، وإنما عرضه بتلطف.

وقوله "أتبعك" معناه: هل تقبلنى تابعا لك، والاتباع يدل على الانقياد التام للمتبوع والاستسلام لأمره، والاقتداء به؛ لأن التابع دون المتبوع ، فهو يعرض عليه قبل كل شيء أن يقبله تابعا له، ولم يعرض عليه التعلم مباشرة، فلم يقل هل تعلمنى؟ وهذا ادعى لاستمالة قلب العالم وأحرى بإجابة طلبه.

قوله: "على أن تعلمنى" الجار والمجرور فى موضع الحال من المفعول به الكاف فى قولك "أتبعك" أى هل أتبعك باذلاً لى بعض علمك،

(١) التحرير والتنوير: م ٧ – جـ ١٣/ ٢٠٢.
(٢) السابق: جـ ٣٦٩/١٥.
(٣)تفسير القرطبى: ٦/ ٤٠٥٦.

و"على" متضمنة معنى الشرط، فاتباعه له على شرط أن يعلمه، واستعمال "على" فى الشرط من قبيل الاستعارة فى الحرف، "بتشبيه لزوم الشرط بالاستعلاء الحسى، كما يقال وجب عليه كذا"(١).

وتأمل قوله "تعلمنى" مضارع علَّم، ولم يقل أتعلم مضارع تعلَّم؛ لأن تعلَّم صيغة تفعل، وهى من الصيغ التى تحقق مبالغة فى المعنى، لما فيها من التكلف والاهتمام ، ولو جاء التعبير بها لأفادت أن موسى عليه السلام يشترط على معلمه أن يجعله مستوعباً للعلم، متمكنا فيه حتى يصير عالما، وهذا أمر ليس فى مقدور العالم، ولا يستطيعه مهما كانت قدرته وبراعته، ولهذا لم يطلب سيدنا موسى هذا الطلب، فلم يقل على أن أتعلم، وإنما قال "على أن تعلمنى" ليفيد أنه يطلب من المعلم إلقاء العلم عليه وبذله فقط؛ لأنه هو الذى فى مقدوره.

وقال "تُعَلِّمنى" ولم يقل "تُعْلِمُنى" مضارع أعلم؛ لأن أعلم تفيد حدوث الفعل مرة واحدة، وعلم تفيد تكراره، قال الراغب: "وأعلمته وعلمته فى الأصل واحد، إلا أن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر فى نفس المتعلم"(٢).

قوله "مما علمت" حرف الجر "من" المدغم فى "ما" أفاد التبعيض، فلم يطلب سيدنا موسى عليه السلام من المعلم أن يعلمه كل العلم الذى عنده، وإنما يطلب منه أن يعلمه بعضا منه، "كأنه يقول لا أطلب منك أن تجعلنى مساويا لك فى العلم، بل أطلب منك أن تفيدنى بعض ما علمت"(٣).

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى: ١١٩/٦.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن: /٣٥٦.
(٣) حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوى: ٢٦٩/٣.

وبناء الفعل "علمت" للمفعول فيه إشارة إلى أن علم الخضر لم يكتسبه بنفسه، ولكن الله سبحانه قد من عليه بهذا العلم، وعلمه إياه ، وكأنه يشير بطرف خفى إلى أنه ينبغى عليه ألا يبخل بهذا العلم على من عنده رغبة فى تعليمه، وبهذه الإشارة يستميل قلب المعلم نحوه، فيوافق على طلبه، والمفعول الثانى لـ "علمت" هو الضمير المحذوف العائد على الموصول، اى بعض الذى علمته.

قوله "رشدا" الرشد إصابة الخير، وهو بهذا يحدد الهدف من التعليم وأنه ينبغى أن يكون الهدف من التعليم تحقيق النفع والخير للعباد فى الدنيا والآخرة.

وانتصب "رشدا" على أنه صفة للمفعول الثانى المحذوف للفعل تعلمنى، أى تعلمنى علما ذا رشد، وأقيمت الصفة مقام الموصوف بعد حذفه، وأعربت إعرابه للمبالغة فى كمال الصفة فى الموصوف وشدة لصوقها به؛ فهى لكمالها فيه، وعدم انفكاكها عنه سدت مسده ووقعت موقعه.

وجاءت الصفة "رشدا" مصدراً للمبالغة فى وصف العلم بالرشد، فالعلم كأنه تجسم من الرشد، فهو عين الرشد، وليس علما متصفا بالرشد.

هذا العرض الذى عرضه سيدنا موسى على المعلم يكشف عن خلق طالب العلم، وما يجب أن يتحلى به من شدة التواضع، وحسن الأدب مع المعلم، والرغبة فى التزود من العلم، والاعتراف بفضل المعلم، قال البيضاوى: "وقد راعى فى ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه،

واستأذن أن يكون تابعاً، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه.."[١].

ولعلك تلاحظ أن جملة "قال له موسى" لم تعطف على ما قبلها؛ لأنها وقعت جوابا عن سؤال انبثق من الكلام السابق، وكأن سائلاً سأل بعد سماعه جملة "فوجدا عبداً من عبادنا.."، فما قال موسى حين لقائه العبد الصالح؟ فكان الجواب: "قال له موسى" فتركت الواو بينهما كما تترك بين السؤال والجواب، وهذا الضرب من ترك الواو يسمى عند البلاغيين الاستئناف البيانى، وشبه كمال الاتصال.

وجملة "قال" من الجمل التى يكثر وقوعها جوابا عن سؤال اقتضته الجملة الأولى، وذلك إذا وقعت فى وسط الكلام بدون حرف عطف، قال الإمام عبد القاهر: "واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ "قال" مفصولاً غير معطوف، هذا هو التقدير فيه، والله اعلم، أعنى مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ. فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ..﴾[٢]، جاء على ما يقع فى أنفس المخلوقين من السؤال، فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم: دخل قوم على فلان فقالوا كذا، أن يقولوا: فما قال هو؟ ويقول المجيب قال كذا، أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم

(١) تفسير البيضاوى: هامش على حاشية شيخ زاده، ٢٦٩/٣.
(٢) الذاريات: /٢٤/٢٨.

المسلك الذى يسلكونه...، وهكذا التقدير والتفسير أبداً فى كل ما جاء فيه لفظ "قال" هذا المجيء"[١].

وقد كثرت جملة "قال" فى هذه القصة التى بين أيدينا، حيث ذكرت اثنتى عشرة مرة، وجاء معظمها على طريقة الاستئناف البيانى، ولم تخرج عن هذا إلا فى موضعين: الموضع الأول حادثة قتل الغلام فى قوله تعالى: ﴿ ..قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ.. ﴾[٢]، والموضع الثاني حادثة بناء الجدار فى قوله تعالى: ﴿ ..قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾[٣]، وسنعرف السبب فى ذلك عند الحديث عن الحادثتين.

ويتبادر إلى الذهن سؤال: كيف يطلب سيدنا موسى التعليم من الخضر، وسيدنا موسى نبى مرسل، وأحد أولى العزم من الرسل، وهو كليم الله، والخضر دون مكانة موسى؛ فقد قيل إنه نبى غير مرسل، وقيل أنه ولى، فكيف يتعلم موسى ممن هو دونه؟.

وأجيب عن هذا أن النبى الرسول أعلم من غيره فيما يخص شريعته ودعوته، ولا مانع أن يتعلم من غيره علما لا يتعلق بالشريعة والدعوة، كهذا العلم الغيبى الذى عند الخضر، فالرسول ليس أعلم من غيره فى كل العلوم والمعارف، بل هو اعلم من غيره فى أمور الشريعة والعقيدة، ولا ينتقص من مكانته أن يتعلم ممن هو أقل منه علما ليس عنده، وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال للصحابة الذين عرض عليهم أمراً وجاءت النتيجة على غير ما يراد: "أنتم اعلم بشئون دنياكم. قال البيضاوى: "ولا ينافى نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطا فى أبواب الدين،

(١) دلائل الاعجاز: /٢٤٠، ٢٤١.
(٢) سورة الكهف: /٧٤.
(٣) سورة الكهف: /٧٧.

فإن الرسول ينبغى أن يكون اعلم ممن أرسل إليه فيما بعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً"[١].

جواب العالم على عرض طالب العلم:

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾[٢] ، العالم هنا ليس عالماً عادياً؛ لأن علمه ليس علما عاديا، وإنما هو عالم من نوع خاص، فقد علمه الله سبحانه بعض الأمور الغيبية، فكان عالما ببواطن الأمور، فلا يقف عند حدود الأمور الظاهرة.

والعالم بموجب علمه الغيبى هذا يعرف أن موسى عليه السلام لا يطيق الصبر على صحبته حتى يتعلم منه، مهما كانت رغبته، ومهما كانت درجة صبره؛ لأنه سيرى أمورا فى ظاهرها مناكير وشر، والرجل الصالح لا يرضى بحدوث المنكر والشر أمامه، فكيف يرضى موسى بذلك وهو النبى الرسول.

فالخضر بموجب علمه الغيبى حكم على سيدنا موسى عليه السلام بعدم قدرته على الصبر على صحبته والتعلم منه، وجاء حكمه مشتملاً على وجوه من التاكيد لتقرير هذا الحكم وتحقيقه، فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، حيث جاءت الجملة مؤكدة بـ "إن" و "لن" النافية، والنفى بها أقوى من النفى بغيرها، وجاء التعبير بنفى الاستطاعة "لن تستطيع" ولم يقل لن تصبر؛ لأن نفى الاستطاعة يلزم منه نفى الصبر بطريق الكناية، وهو آكد وأقوى من نفى الصبر مباشرة؛ لأنه نفى قائم على الحجة والبرهان. كما أن نفى الاستطاعة فيه إشارة إلى شدة رغبة سيدنا موسى فى التعلم، وأنه لا

(١) تفسير البيضاوى: هامش على حاشية شيخ زادة: ٢٦٩/٣.
(٢) سورة الكهف: /٦٧، ٦٨.

يدخر جهداً لتحقيق هذا الهدف، ولهذا عبر بنفى الاستطاعة دون نفى القدرة، فلم يقل لن تقدر على الصبر؛ لأن نفى الاستطاعة لا تعنى نفى القدرة، وإنما تعنى أن هذا الأمر صعب وعسير وإن كان فى المقدور فعله، "فالاستطاعة أخص من القدرة"(١)، ونفى الخاص لا يدل على نفى العام. قال أبو هلال العسكرى: "وأما قوله تعالى: ﴿..لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾(٢)، فمعناه أنه يثقل عليهم استماع القرآن ، ليس أنهم لا يقدرون على ذلك، وأنت تقول: لا أستطيع أن أبصر فلاناً، تريد أن رؤيته تثقل عليك"(٣)، وهذا المعنى أفصح عنه السيوطى فى قوله: "نفى الاستطاعة قد يراد به الوقوع بمشقة وكلفة، كما فى قوله تعالى:﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(٤). ومن صور التأكيد التى جاءت عليها الجملة تنكير المفعول "صبراً" فى سياق النفى، والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم، فدل هذا على أنه لا يقدر على شيء ما من الصبر، كثيراً كان أو قليلاً.

وقد كشف الشهاب الخفاجى عن وجوه التأكيد فى هذه الآية على وجه الإجمال وذلك فى قوله: "وجوه التأكيد إن والنفى بـ لن، فإن نفيها آكد من نفى غيرها، وعدوله عن قوله لن تصبر إلى لن تستطيع، فإن المراد من نفى الاستطاعة نفى الصبر، لأن الثانى لازم الأول، فهو إثبات له بطريق برهانى على طريق الكناية، كما يدل عليه قوله "وكيف تصبر" وتنكير "صبراً" فى سياق النفى، أى شيئاً ما من الصبر"(٥).

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٣١٩.
(٢) سورة الكهف: /١٠١.
(٣) الفروق اللغوية: /٨٩.
(٤) الإتقان: ٢/١٠٠/ ١٠١ بتصرف.
(٥) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى: ٦/١١٩.

والملاحظ أن الظرف "معى" قدم على المفعول "صبراً" لإفادة التخصيص، فنفى استطاعة الصبر عن موسى عليه السلام ليس على الإطلاق وفى كل الأوقات، وإنما نفى الصبر عنه خاص بوقت صحبة هذا العالم، فموسى لا يستطيع الصبر معه ويستطيع الصبر مع غيره.

وقد يتبادر فى الذهن سؤال: لماذا أكد الخبر بهذه المؤكدات المتنوعة، مع أن المخاطب خالى الذهن من هذا الحكم، فلم يعلم عنه شيء من قبل؟

والجواب أن التأكيد هنا جاء للدلالة على قوة إحساس المتكلم بهذا الحكم وتمكنه فى نفسه، وشدة إحساسه به، فهو بموجب علمه الغيبي يعرف هذا الحكم على وجه اليقين، فصاغ الخبر كما أحسَّه تحقيقاً لمضمونه.

والغرض من الخبر هنا هو: "تحذير منه لموسى، وتنبيه على ما يستقبله منه حتى يقدم على متابعته إن شاء على بصيرة وعلى غير اغترار، وليس المقصود منه الإخبار...، ولو كان خبراً على أصله لم يقبل فيه المراجعة، ولم يجبه موسى بقوله: ﴿ ..سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾[(١)]".

وبعد أن حكم الخضر على سيدنا موسى بعدم استطاعته الصبر على التعليم، إذا به يلتمس له العذر فى هذا الحكم، فيعلل ذلك بأن العلم الذى عنده علم خفى لا يطيقه موسى عليه السلام؛ لأن ظاهره منكر وباطنه لم يحط به علمه؛ فكيف يصبر عليه؟ وفى هذا إشارة إلى أن حكمه على سيدنا موسى بعدم استطاعته الصبر ليس تقصيراً من جانب سيدنا موسى، ولكن

(١) التحرير والتنوير: م ٧، جـ ٣٧١/١٥.

لصعوبة هذا النوع من العلم وخفاء سره، قال العالم: "**وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً**".

الواو فى قوله "وكيف.." واو الحال، والجملة فى محله نصب حال من الفاعل فى قوله: "تستطيع" أى لن تستطيع معى صبراً حالة كونك لم تحط به علما.. ولا يجوز أن تكون الواو هنا عاطفة؛ لأن ما بعدها إنشاء وما قبلها خبر.

وقد كشف الطاهر بن عاشور عن السر فى مجيء الجملة بالواو على الحالية، وعدم مجيئها بدون الواو حتى تكون متصلة بما قبلها اتصال العلة بالمعلول، وذلك فى قوله: "وإنما أوثر مجيؤها فى صورة الجملة الحالية دون أن تفصل عن الجملة الأولى فتقع علة، مع أن التعليل هو المراد؛ للتنبيه على أن مضمونها علة ملازمة لمضمون التى قبلها، إذ هى حال من المسند إليه فى الجملة قبلها"(١).

ويجوز أن تكون الواو استئنافا نحويا لإظهار العلة فى صورة مستقلة بحيث تفيد نفى الصبر عن كل إنسان لم يحط علما بالمصبور عليه.

والاستفهام بـ "كيف" أفاد النفى والتعجب من إمكان حدوث الصبر منه، وفى هذا بسط العذر لسيدنا موسى، فالأمر فوق طاقته.

والتعبير بـ "تحط" أفاد "أن الصبر التام إنما يقع بعد إحاطة العلم بالشيء، وذلك صعب إلا بفيض إلهى"(٢).

وتستعمل الإحاطة فى الاجسام على سبيل الحقيقة، وفى المعانى على سبيل المجاز، قال الزمخشرى: "ومن المجاز: أحاط به علما. أتى على

---

(١) السابق: م ٧، جـ ٣٧٢/١٥.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /١٣٦.

أقصى معرفته، كقولك قتله علما، وعلمه علم إحاطة، إذا علمه من جميع وجوهه، لم يفته شيء منه"[١].

فالإحاطة هنا استعارة تصريحية، بتشبيه التمكن فى الاتصاف بالعلم بإحاطة الجدار الذى يحوط بالمكان، ثم حذف المشبه، واستعير لفظ المشبه به للمشبه، وقد حققت الاستعارة المبالغة فى نفى التمكن من العلم، والاتصاف بأقصى درجة فيه.

وقوله "خبراً" معناه علما، وهو مصدر خبر، وجاء منصوبا على التمييز المحول عن الفاعل، فالأصل: لم يحط به خبرك. وقد أفاد التمييز عدة نكات، منها المبالغة فى نفى الإحاطة بالخبر، حيث جاء النفى منصبا على الشخص ذاته، ولم يأت بنفى صفته، ومنها التفصيل بعد الإجمال والإيضاح بعد الإبهام، وهذا مما يمكن المعنى فى النفس، ومنها تفخيم المعنى بتنكير "خبرا" لأن التمييز لا يكون إلا نكرة، ولو لم يأت على التمييز لكان معرفة.

والملاحظ فى جواب العالم على طلب سيدنا موسى أنه دار حول عدم قدرته على الصبر، فلم يصرح بموضوع التعليم، وكأن القضية قضية الصبر، وليست قضية التعليم، وفى هذا دلالة على أن الصبر من أهم الأسلحة التى يجب أن يتسلح بها طالب العلم، وبدون الصبر وقوة التحمل لا يمكن أن يحصل علما.

والملاحظ أيضاً أن العالم لم يرفض صراحة طلب سيدنا موسى، فلم يقل له لا أوافق على تعليمك، بل أشار إلى انه لا مانع عنده من الموافقة على طلبه، ولكن المانع عنده هو، وهو عدم قدرته على الصبر على هذا

(١) أساس البلاغة: /١٤٨.

النوع من العلم، ولذلك نجده يلتمس له العذر على عدم إمكان تحقق الصبر منه.

جواب الطالب على حكم العالم:

أجاب الطالب على حكم العالم بجواب يحمل فى جوانبه تشبثه بصحبة العالم، وبتحصيل العلم منه، فوعد العالم وعداً مؤكداً بأنه سيكون صابراً مطيعاً له فى كل أوامره، فقال: ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا** ﴾.

تأمل قوله "ستجدنى" حيث أكد الفعل بالسين، وعبر بالوجدان "ستجدنى"، ولم يقل سأصبر، للإشارة إلى ان صبره سيكون ملموساً مشاهداً للعالم؛ لأن الوجدان هو العلم بالموجود، قال أبو السعود: "وفى وعد هذا الوجدان من المبالغة ما ليس فى الوعد بنفس الصبر"(١).

وفى قوله "إن شاء الله" تعليق وجدان الصبر منه وعدم العصيان على مشيئة الله سبحانه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾(٢). وفى ذلك تأكيد على وجود الصبر منه، لأنه استعان بمشيئة الله.

قوله "**ولا أعصى لك أمراً**" معطوف على المفعول الثانى "صابراً" أى ستجدنى صابراً غير عاص، وخولف بين المعطوفين فجاء الاول اسما والثانى فعلاً مضارعاً لإفادة الثبوت فى الأول والتجدد والحدوث فى الثانى، فالصبر وصف ثابت فيه، وعدم العصيان من مقتضيات الصبر، وهو يتجدد

(١) تفسير أبى السعود: ٣/٣٩٣.
(٢) سورة الكهف: /٢٣، ٢٤.

بتجدد المصبور عليه، وجاء "أمراً" نكرة فى سياق النفى لإفادة تأكيد العموم؛ لأن الأمر "لفظ عام للأفعال والأقوال كلها"(١).

قوله "لك". كان فى الأصل صفة لـ "أمراً" فلما قدم عليه أعرب حالاً، فأفاد تأكيد عدم العصيان بحالة كون الأمر له، وعدم عصيان الأمر هو تقرير للاتباع الذى عرضه فى أول الأمر فى قوله (هل أتبعك)، فهو يعد بالصبر والانقياد التام لأمر العالم.

وتعليق الوعد بمشيئة الله سبحانه ليس المقصود به التعليق على معنى أنه غير عازم على الصبر، بل المقصود به التيمن بذكر المشيئة استعانة بها فى تحقيق الوعد.

والملاحظ أنه وعد بأمرين الصبر وعدم العصيان، وكلا الأمرين معلقان بالمشيئة، وقد وقع التعليق بالمشيئة بين المفعول الأول للوجدان وبين المفعول الثانى "صابراً" "لمزيد من الاعتناء بشأنه"(٢).

ووجه الاعتناء بالمشيئة المفاد من توسطها بين مفعولى الوجدان وتقديمها على المعطوف "ولا اعصى لك امرا" أنه عن طريق هذا الترتيب وقعت المشيئة معترضة بين مفعولى الوجدان اهتماماً بشأنها، وتحقق بهذا الترتيب أيضاً تكرير المشيئة؛ لأن المعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه فى التقييد بالمشيئة، فكأنها ذكرت مرتين، قال الطيبى: "فيكون التقدير: "..**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمْرًا**"، والشرط مع الجزاء المحذوف معترض بين المفعولين. أما بيان بلاغة هذا التركيب، فإنه لو قدم الشرط بأن يقال: إن شاء الله ستجدنى صابراً لفات التكرير والتوكيد المطلوب، ولو آخر بأن يقال ستجدنى صابراً إن شاء الله لاختل إرادة

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن: /٢٠.
(٢) روح المعانى: م/٩، جـ/١٥/٤٨٣.

الاهتمام لكلمة التبرك، ولعدم حسن موقع الاعتراض، فإنه من تحاسين الكلام"[١].

وكل ما جاء فى القرآن الكريم من التعليق بفعل المشيئة وقع على وجه الاعتراض بين أجزاء الجملة تيمنا بالمشيئة واعتناء بها، كما فى قوله تعالى: ﴿ ..ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[٢]، وقوله ﴿ . .وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣]، وقوله﴿ . .سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٤]، وكما فى هذه الآية التى معنا.

وإذا تأملت وعد سيدنا موسى العالم بالصبر ووعد سيدنا إسماعيل أباه بالصبر حين عرض عليه أبوه ذبحه بناء على رؤيا منامية وذلك فى قوله تعالى: ﴿ ..قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٥]، إذا تأملت الوعدين وجدت أن وعد سيدنا إسماعيل أدل على المبالغة فى الاتصاف بالصبر من وعد سيدنا موسى، فهناك فرق بين فلان صابر، وفلان من الصابرين، التعبير الأول يفيد مجرد وصفه بالصبر بدون مبالغة، والتعبير الثانى يفيد المبالغة فى وصفه بالصبر؛ لأنه يدل على ان الموصوف معدود من جماعة مشهورة بالصبر، وأن له فى الصبر مكانة عالية جعلته واحداً منهم، فالصبر سمة هؤلاء القوم، به عرفوا ، وفيه اشتهروا، والموصوف واحد من هؤلاء، فهو معروف بالصبر كما عرفوا، مشهور به كشهرتهم.

---

(١) فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب: ٥١٨/٩.
(٢) سورة يوسف/ ٩٩.
(٣) سورة القصص: /٢٧.
(٤) سورة الصافات: /١٠٢.
(٥) سورة الصافات: /١٠٢.

وقد جعل الطيبى هذا الاسلوب قريبا من الكناية عن النسبة، وذلك فى قوله: "ويقرب منه العدول عن التعبير بالوصف إلى جعل الموصوف واحداً ممن اشترك فيه، كالعدول من نحو: فلان عالم، إلى هو من العلماء، إيذانا بأن له مساهمة معهم فى العلم، وأن الوصف كاللقب المشهود له ، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾[١]"[٢].

وقد جاء وعد سيدنا إسماعيل أباه بالصبر على هذه الطريقة، بجعل الموصوف واحداً من جماعة مشهورة باتصافها بالصبر، وفى هذا مبالغة فى اتصافه بالصبر، لأن أباه سيجده فى عداد الموسمين المشهورين بالصبر.

وجاء وعد سيدنا موسى على الأصل باتصافه بالصبر مباشرة، فأفاد مجرد اتصافه بالصبر بدون مبالغة، لأنه قال ذلك رداً على حكم العالم عليه بعدم قدرته على الصبر معه على وجه التأكيد، وذلك فى قوله: "﴿..إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[٣]، قال الطاهر بن عاشور: "وفى قوله "من الصابرين" من المبالغة فى اتصافه ما ليس فى الوصف بـ "صابر"؛ لأنه يفيد أنه سيجده فى عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به، ألا ترى أن سيدنا موسى عليه السلام لما وعد الخضر قال: ﴿..سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا..﴾لأنه حمل على التصبر إجابة لمقترح الخضر"[٤].

(١) سورة الشعراء: /١٦٨.
(٢) التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان:/٢٧١.
(٣) سورة الكهف:/٦٧.
(٤) التحرير والتنوير: م/١١، جـ ١٥٢/٢٢.

وقد يسأل سائل فيقول: ما السر فى مجيء الوعد بالاتصاف بالصبر فى حق سيدنا إسماعيل عليه السلام على وجه المبالغة ، ومجيئه فى حق سيدنا موسى عليه السلام بدون مبالغة؟.

والجواب عن هذا – والله اعلم بمراده– هو اختلاف المقام باختلاف المصبور عليه، فالمقام فى قصة سيدنا إسماعيل مع أبيه اقتضى وصفه بصفة الصبر على وجه المبالغة والكمال، فهو مقام يعرض فيه سيدنا إبراهيم على ابنه سيدنا اسماعيل – عليهما السلام– مفارقته الحياة وإزهاق روحه، فيذبحه أبوه بنفسه، مع التسليم والإذعان لهذا العرض، وهذا أمر من أصعب الأمور وأشدها على النفس، بأن يسلم الإنسان نفسه برضا كامل وإذعان تام لمن يذبحه، وأى صبر يعادل صبر الإنسان على تقديم نفسه وحياته راضياً مطمئنا مستسلما لأمر الله تعالى وطاعة لأبيه، مثل هذا المقام لا يصبر فيه إلاّ من بلغ غاية الصبر وكماله، بحيث يكون من هؤلاء الموسمين بالصبر المشهورين به، وقد تحقق ما وعد به سيدنا إسماعيل، واستسلم هو وسيدنا ابراهيم لأمر الله، وعند بداية تنفيذهذا الأمر الصعب تدخلت عناية الله سبحانه ورحمته بالأب وابنه، ففداه الله بذبح من السماء.

ولأن هذا الموقف من اصعب المواقف وأشدها على النفس وصفة الحق سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[1]، وجاء النظم بقصر البلاء المبين على ما حدث لسيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – عن طريق تعريف الطرفين وضمير الفصل، بالإضافة إلى تأكيد الخبر بـ "إن" و "اللام" للدلالة على عظمة هذا الحدث وغرابته وشدة صعوبته، وهو من فرائد التراكيب فى القرآن الكريم، حيث لم يأت وصف أى حدث بالبلاء المبين

(١) سورة الصافات:/١٠٦.

على هذا النحو من التاكيد والقصر إلاّ فى قصة ذبح سيدنا إبراهيم لابنه سيدنا إسماعيل عليهما السلام.

أما المقام فى حق سيدنا موسى عليه السلام فهو مقام الصبر على امور ظاهرها منكر، ولا تؤثر على حياة سيدنا موسى ووجوده، فالمصبور عليه هنا أخف ضرراً، وأهون على النفس، فناسب ذلك أن يكون اتصافه بالصبر بدون المبالغة التى جاءت فى قصة سيدنا إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام.

والملاحظ أن سيدنا موسى عليه السلام مع تاكيد الوعد للعالم بأنه سيكون صابراً لم يطلب من العالم الموافقة على طلب التعليم، فلم يقل له وافق على تعليمي وأعدك بالصبر، ولكنه ترك الحكم للعالم، فهو صاحب الرأى فى ذلك، وهذا من آداب طالب العلم مع العالم، فلا يليق من الطالب أن يامر معلمه مهما كانت منزلة الطالب.

جواب العالم على ما وعد به الطالب:

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[1].

لم يجد العالم عذراً فى رفض عرض الطالب بعد أن وعده وعداً مؤكداً بالصبر والطاعة التامة، فأجاب بالموافقة على اتباع الطالب له، ولكنها موافقة مشروطة بشرط، وهو عدم مبادرة الطالب العالم بالسؤال عن شيء رآه وخفى عليه وجه الحكمة فيه، فلا يفاتحه فى معرفة السبب فى فعل فعله فضلاً عن الانكار، قال الزمخشرى: "يعنى فمن شرط اتباعك لى أنك إذا رأيت منى شيئاً وقد علمت أنه صحيح، إلا أنه غبى عليك وجه صحته، فعميت وأنكرت فى نفسك أن لا تفاتحنى بالسؤال، ولا تراجعنى فيه حتى

(١) سورة الكهف: /٧٠.

أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع"[١].

والفاء فى قوله "فإن" تفريعية، أى تفريع الشرط والجزاء على ما وعد به سيدنا موسى فى الآية السابقة، و"حتى" حرف جر وغاية بمعنى إلى.

ونلاحظ أن الخضر – بموجب علمه الغيبي – يدرك أن سيدنا موسى لن يواصل معه الاتباع، ولن يصاحبه كثيراً ، ولهذا عبر بـ "إن الشرطية، فقال: "فإن اتبعتنى" للإشارة إلى أن اتباع سيدنا موسى له أمر نادر قليل الحدوث ، قال الخطيب القزوينى: "الأصل فى "إن" أن لا يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه، كما تقول لصاحبك: "إن تكرمنى أكرمك"، وأنت لا تقطع بأنه يكرمك... ولذا كان الحكم النادر موقعا لـ "إن"؛ لأن النادر غير مقطوع به فى غالب الأمر"[٢]، ولهذا لم يعبر بـ "إذا"؛ لأن إذا تستعمل فى الشرط المقطوع بوقوعه الكثير الحدوث.

وتنكير "شيء" فى سياق النفى أفاد العموم، أى لا تسألنى عن شيء ما مهما كانت صفته.

وبعد هذا الشرط الذى وضعه العالم للموافقة على اتباع سيدنا موسى له، وقبول سيدنا موسى شرط العالم تنتقل بنا القصة إلى بداية الصحبة والاتباع، وقد كانت الصحبة قصيرة كما توقع العالم، حيث توقفت بعد الحادثة الثالثة بموجب ما شرطه سيدنا موسى على نفسه بعد اعتراضه للمرة الثانية، والآن نبدأ بالحادثة الاولى وكلنا شوق لمعرفة عجائب الخضر، ومعرفة موقف سيدنا موسى من رؤية هذه العجائب.

---

(١) الكشاف: /٤٩٣.
(٢) الإيضاح: ٨٨/١.

الحادثة الأولى خرق السفينة

قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[١].

وافق العالم على صحبة سيدنا موسى عليه السلام بعد ان قبل سيدنا موسى شرط الخضر بعدم مبادرته المعلم بالسؤال، وكانت أول حادثة فى هذه الصحبة حادثة خرق السفينة. هذه السفينة كانت لمساكين فقراء، وكانوا فى أشد الحاجة إلى الارتزاق منها، ولم يفعل المساكين شيئا يقتضى إفساد سفينتهم، بل إنهم حين عرفوا الخضر رفضوا أن يأخذوا منهما أجرة على الركوب، ومع ذلك خرق الخضر سفينتهم، وعرَّض من عليها للإغراق، وهنا لم يطق سيدنا موسى صبراً على رؤية هذا الفعل المنكر فى ظاهره، ولم يسأل عن الحكمة من وراء هذا الفعل؛ لأن ظاهر الفعل لا تقتضيه الحكمة، بل أنكر على العالم فعله، ووصف هذا الفعل بأنه من الدواهى العظيمة. روى البخارى من حديث أبى بن كعب: "فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فطلبوا أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقادوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا..."[٢].

فى قوله تعالى: " فَانطَلَقَا " إيجاز بالحذف، حيث دلت فاء الفصيحة على كلام محذوف يفهم من السياق، والتقدير قبل موسى شرط العالم، ووافق العالم على صحبته فانطلقا.

---

(١) سورة الكهف: /٧١.

(٢) صحيح البخارى: جـ ٦/ ١١١، ١١٢، ط مكتبة الجمهورية العربية.

وعبر بالإنطلاق ولم يعبر بالذهاب مثلاً؛ لأن الانطلاق يكون عقب المنع، فقد كان هناك منع من الصحبة، وعقب الموافقة زال المنع، فكان الانطلاق بسهولة ويسر، قال أبو هلال العسكرى: "وأصل الكلمة السهولة والانحلال، وكل شيء تطلقه من حبس أو تحله من وثاق فينصرف كيف يشاء، أو تحلله بعد تحريمه، أو تبيحه بعد المنع تقول أطلقته، وهو طلق وطليق"(١). فالفعل على وزن انفعل مطاوع "طلق"، وألف الاثنين المراد به الخضر وسيدنا موسى، أما الفتى الذى كان مع سيدنا موسى فلم يجر له ذكر فى هذه الصحبة، إما لأنه تبع لسيدنا موسى، وإما لأن سيدنا موسى رده إلى بنى اسرائيل.

قوله ﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا.. ﴾ حتى غاية للانطلاق، أى إلى أن ركبا فى السفينة"(٢). و"إذا" أداة شرط، و"ركبا" فعل الشرط، و"خرقها" جواب الشرط.

قوله " رَكِبَا" قال الراغب: الركوب فى الأصل كون الإنسان على ظهر حيوان، وقد يستعمل فى السفينة"(٣). فقول الراغب وقد يستعمل فى السفينة إشارة إلى أن استعمالها فى ركوب السفينة من قبيل المجاز وليس من قبيل الحقيقة والأصل، وقد ذهب إلى هذا القاضى البيضاوى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا..﴾(٤) أى صيروا فيها، وجعل ذلك ركوبا؛ لأنها فى الماء كالمركوب فى الأرض"(٥). وعلى هذا فاستعمال الركوب

(١) الفروق اللغوية: /٢١٨، ٢١٩.
(٢) التحرير والتنوير: م ٦، جـ ٧٣/١٢.
(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن: /٢٠٧.
(٤)سورة هود: /٤١..
(٥) حاشية شيخ زادة: ٤٤/٣، هامش تفسير البيضاوى.

لاعتلاء السفينة من قبيل الاستعارة التصريحية، بتشبيه الاستقرار عليها والصيرورة إليها بالركوب، ثم حذف المشبه، ويجوز أن تكون مكنية، وذلك بتشبيه السفينة بفرس يركب، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه. وقد أوضح هذا التأويل الطاهر بن عاشور فى قوله: "وعدى فعل "اركبوا" بـ "فى" جريا على الفصيح، فإنه يقال: "ركب الدابة إذا علاها، وأما ركوب الفلك فيعدى بـ "فى"؛ لأن إطلاق الركوب عليه مجاز، وإنما هو جلوس واستقرار، فلا يقال: ركب السفينة، فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقى والركوب المشابه له، وهى تفرقة حسنة"(١).

وبالتأمل فى فعل الركوب فى القرآن الكريم وجد أنه يتعدى بنفسه إذا كان المركوب حيوانا، كالخيل والبغال والحمير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً..﴾(٢)، ويتعدى بالحرف إذا كان المركوب جماداً لا إرادة له، كما فى الآية التى معنا، وكما فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ..﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا..﴾(٤). فركوب الحيوان جاء على الأصل فى التعدية بنفسه، وركوب الجماد جاء متعديا بـ "فى" مراعاة لجانب المكانية، وقد أفصح عن هذا العلامة أبو السعود فى قوله: "الركوب العلو على شيء متحرك، ويتعدى بنفسه، واستعماله ههنا بكلمة "فى" ليس لأن المأمور به كونهم فى جوفها لا فوقها كما ظن، فإن أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها فى البطن الأسفل، والأنعام فى الأوسط ،

(١) التحرير والتنوير: م ٦، جـ ٧٣/١٢.
(٢) سورة النحل: /٨.
(٣) سورة العنكبوت: /٦٥.
(٤) سورة هود: /٤١.

وركب هو ومن معه فى الأعلى، بل لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك، والسر فيه أن معنى الركوب العلو على شيء له حركة، إما إرادية كالحيوان، أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما، فإذا استعمل فى الأول يوفر له حظ الأصل فيقال ركبت الفرس، وعليه قوله عز من قائل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا..﴾ وإن استعمل فى الثانى يلوح بمحلية المفعول بكلمة "فى" فيقال: ركبت فى السفينة، وعليه الآية الكريمة، وقوله عز قائلاً: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ..﴾[1].

والركوب فى السفينة على هذا التأويل من باب الحقيقة. وتعريف السفينة بـ "أل" قصد به العهد الذهنى، والمراد بالعهد الذهنى، أن يكون مدخولها مراداً به فرد مبهم من أفراد الحقيقة لقرينة دالة على ذلك، فليس المراد بالسفينة هنا سفينة بعينها معهودة فى الخارج، وإنما المراد بها فرد مبهم غير معين من أفراد الحقيقة، بقرينة قوله "ركبا" ولا يمكن أن يكون المقصود بأل هنا الحقيقة والجنس؛ لأن الحقيقة من حيث هى أمر لا وجود له فى الخارج حتى يتحقق الركوب فيه، ولا يمكن أن يكون المقصود بها الاستغراق، أى استغراق جميع أفراد الجنس؛ لاستحالة ركوب السفن كلها..

والملاحظ أن التعبير القرآنى جاء بلفظ السفينة هنا ولم يأت بلفظ الفلك مع أنهما متقاربا المفهوم، فالفلك هى السفينة، ولكن يبقى لكل لفظ خصوصية تجعله أخص بهذا المكان. ولفظ السفينة ذكر فى القرآن أربع مرات، ثلاث مرات فى هذه القصة، والرابعة فى قصة سيدنا نوح ونجاته من

(١) تفسير أبى السعود: ٣/٣٣.

الغرق، وذلك فى قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ..﴾[١]. وجاء التعبير عن السفينة بالفلك فى أربعة وعشرين موضعا، والسؤال: ما السر فى اختيار كلمة السفينة دون كلمة الفلك فى هذه القصة، وفى الحديث عن نجاة سيدنا نوح ومن معه فى سورة العنكبوت.

لعل السر فى ذلك – والله أعلم بمراده– الدلالة على السهولة واليسر فى الركوب والحركة، ولهذا يعبر عن الإبل التى تقطع الصحراء فى سهولة ويسر بأنها سفائن البر على سبيل الاستعارة، ولم يعبر عن ذلك بالفلك، فلا يقال: فلك البر، قال الراغب: "ثم تجوز بالسفينة، فشبه بها كل مركوب سهل"[٢]، فالتعبير بالسفينة هنا أضفى على الركوب والحركة صفة السهولة واليسر، وكذلك فى قصة نجاة سيدنا نوح ومن معه فى سورة العنكبوت جاء التعبير بها ليدل على اليسر والسهولة، وذلك بعد أن تحققت النجاة من الإغراق".

ويجوز أن يكون التعبير بالسفينة للدلالة على أنها سفينة صغيرة تعلو فوق الماء، وليست كالفلك، وهى السفينة الكبيرة التى يغوص جزء كبير منها تحت الماء، ويطفو الجزء الآخر فوق الماء، فالسفينة مشتقة من السفن، قال ابن منظور: "والسفينة الفلك لأنها تسفن وجه الماء، أى تقشره، فعيله بمعنى فاعلة، وقيل لها سفينة لأنها تسفن الرمل إذا قل الماء، وقيل سميت السفينة سفينة لأنها تسفن على وجه الأرض، أى تلزق بها"[٣]..

فالسفينة فى هذه القصة ليست فى ضخامة وعظم الفلك، خصوصاً أنها ملك لمساكين. والسفينة فى قصة نوح عليه السلام جاءت بهذا اللفظ فى

---

(١) سورة العنكبوت:/١٥.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن: /٢٤٠.
(٣) لسان العرب: مادة /سفن.

سورة العنكبوت دون لفظ الفلك الذى جاء فى كل المواضع التى تحدثت عن الطوفان؛ لأن الحديث فى سورة العنكبوت جاء بعد توقف نزول الماء من السماء، وبلع الأرض ما عليها من ماء، وغيض الماء، فحصلت النجاة واستقرت السفينة على الجودى، فالفلك الآن بعد النجاة أصبحت سفينة تسفن الرمل والأرض، أى تلزق بها، أما التعبير بالفلك فإنه يدل على الضخامة والعظمة، وأن الفلك غائصة فى الماء لضخامتها.

قوله "خرقها" قال الراغب: "الخرق قطع الشيء على سبيل الفساد من غير تدبر ولا تفكر"(١).

وعبر بالخرق هنا، ولم يعبر بالثقب؛ لأن الثقب يكون ضيقاً وخفياً، بخلاف الخرق فإنه يكون واسعاً وظاهراً، قال الراغب : "وقيل لثقب الأذن إذا توسع خرق، وصبى أخرق وامرأة خرقاء مثقوبة الأذن ثقبا واسعاً"(٢).

قوله: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا..﴾ جاءت جملة "قال" بغير الواو لأنها استئناف بيانى كما ذكرنا من قبل، والاستفهام فى قوله "أخرقتها" استفهام إنكارى، فهو ينكر عليه خرق السفينة، وليس له نتيجة إلاّ إغراق من عليها، ويفيد الاستفهام مع الإنكار التعجب من فعل أمر شديد الغرابة، لا يظهر له سبب إلاّ الإغراق. واللام فى قوله "لتغرق" للتعليل، فالإغراق علة ملازمة للخرق، ويجوز أن تكون اللام للعاقبة، أى صارت عاقبة الخرق إلى الإغراق، وهذا المعنى أظهر فى قراءة "لِيُغْرِقَ أَهْلُهَا" بالياء المفتوحة من الفعل الثلاثي غرق، وبرفع الأهل على أنه فاعل، وقرئ "لِتُغْرَّقَ" بتشديد الراء للدلالة على كثرة من سيقع بهم التغريق.

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /١٤٧.
(٢) المصدر السابق.

والملاحظ أن سيدنا موسى عليه السلام لم ينص على نفسه فى قضية الإغراق، فلم يقل: لتغرقنى، وإنما أوقع الإغراق على أهل السفينة عامة، وهو واحد منهم، فقال: "لتغرق أهلها" مع أن المعتاد فى مثل هذه المواقف أن ينشغل الإنسان أول ما ينشغل بنفسه، وعليك أن تتصور كارثة إغراق محقق، فستجد كل أحد يبحث عن وسيلة ينجو بها، ولا ينظر إلى غيره، ولعل السر فى ذلك الإشارة إلى أن الذي يشغل سيدنا موسى عليه السلام ويخيفه هو إغراق أهل السفينة، ونفسه لا تعنيه، فأهل السفينة عنده أهم من نفسه ، وهذا هو خلق الأنبياء فى حرصهم على الحق والرأفة بالخلق، والشفقة على الضعفاء، قال ابن المنير: "ومما يدل على أن موسى إنما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحق أنه قال حين خرق السفينة "أخرقتها لتغرق أهلها" ولم يقل لتغرقنا، فنسى نفسه، واشتغل بغيره فى الحالة التى كل أحد فيها يقول نفسى نفسى، لا يلوى على مال ولا ولد، وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين"(١).

قوله: ﴿ ..لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾، اللام واقعة فى جواب القسم، وفيه إيجاز بحذف حرف القسم والمقسم به، أى والله لقد جئت، وجاء القسم تأكيداً لإنكاره السابق، فلم يكتف بالإنكار على العالم، بل أكد ذلك الإنكار بالقسم، ووصف الفعل الذى فعله بالإمر، والإمر: هو العظيم الهائل، مأخوذ من قولهم "أمر الأمر أى كبر وكثر، كقولهم استفحل الأمر"(٢)، قال أبو عبيدة والإمر الداهية العظيمة؛ وأنشد:

(١) الانتصاف على الكشاف: ٤٩٢/٢.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن: /٢١.

قد لقى الأقران منى نكرا داهية دهياء إداً إمرا. [١]

وجاء التعبير بكلمة "شيئاً" موصوفة بـ "إمراً" ولم يأت التعبير بالأمر بدل الشيء على طريقة التجنيس بين الكلمتين، فلم يقل لقد جئت أمراً إمرا، لأن التعبير بـ "شيئاً" هنا يتفق مع التعبير بـ "شيء" فى قوله ﴿..**فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ**..﴾ فما أنكره شيء من الأشياء التى نهى عن السؤال عنها، وأيضاً من فوائد اختيار "شيئاً" دون أمرا، أن الأمر "لفظ عام للأفعال والأقوال كلها"[٢]، والشيء: "هو الذى يصح أن يعلم ويخبر عنه"[٣]، فالفعل المخصوص المحدد – وهو مفهوم كلمة شيء– أنسب لهذا المقام.

قد يقال إن التعبير بالأمر بدل التعبير بالشيء يحقق الجناس بين اللفظين، والجناس من فنون البديع الذى يضفى على المعنى حسنا، ويزيده رونقاً وبهاء، فما السر فى عدم مجيء التعبير هنا على التجنيس؟.

الجواب عن ذلك هو أن التجنيس عن طريق التعبير بالأمر لا يكشف عن حق المعنى لما ذكرناه سابقاً، هذا فضلاً عن ان التجنيس يؤدى إلى تكرار لفظين متجاورين، وكلمة أمر مكونة من حروف متباعدة فى المخرج، وتكرارها بدون فاصل يؤدى إلى ثقلها على اللسان مع أن الكلمة على حدة لا ثقل فيها، والقرآن الكريم فى الذروة من الفصاحة.

قال الألوسى كاشفاً عن السر فى عدم مجيء التعبير على الجناس: "قيل ولم يقل أمرا إمرا مع ما فيه من التجنيس لأنه تكلف لا يلتفت إلى مثله فى الكلام البليغ، كما صرح به الإمام المرزوقى فى شرح قول السموأل:

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

---

(١) تفسير القرطبى: ٤٠٥٨/٦.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن: /٢٠.
(٣) السابق: /٢٧٨.

رداً لاختيار بعضهم رواية يقصر حب الموت، وأيد ذلك بقول أبى ذؤيب:

وشيك الفصول بعيد القفول

حيث أمكن له أن يقول: بطيء القفول، ولم يقل. (١)

وقد أوضح الإمام عبد القاهر أن التجنيس لا يكون مستحسنا مقبولاً فى كل حال، بل يكون مستحسنا مقبولا إذا كان أحق بالمعنى من غيره، بحيث يطلبه المعنى ولا يبغي به بدلاً، وأن يأتى فى الكلام من غير قصد ولا تكلف فى الإتيان به، قال رحمه الله: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بدلاً، ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان احلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو –لحسن ملائمته، وإن كان مطلوبا – بهذه المنزلة وفى هذه الصورة(٢).

جواب العالم على إنكار الطالب عليه هذا الفعل:

أجاب العالم على إنكار الطالب بجواب اتسم بالحلم والرفق، فلم يعلن عن توقف الاتباع، لأن الطالب أخل بالشرط الذى شرطه عليه العالم، وهو عدم الاعتراض والاستفسار عن شيء ما، فضلاً عن الإنكار، وإنما اكتفى بتذكيره. بحكمه الذى حكم به عليه سابقاً، وهو عدم استطاعته الصبر على رؤية ما يصدر من أفعال فقال: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾(٣).

(١) روح المعانى: م/ ٩، جـ/١٥، /٤٨٦، ٤٨٧.
(٢) أسرار البلاغة:/١١.
(٣) سورة الكهف:/٧٢.

وجملة قال استئناف بيانى كما سبق، والاستفهام فى قوله "ألم" استفهام تقريرى، معناه التحقيق والتثبيت، أى التقرير بالحكم السابق الذي حكم به العالم، والمعنى: قلت إنك لن تستطيع معى صبرا، وأفاد الاستفهام مع التقرير اللوم والعتاب على عدم الوفاء بوعده؛ فدلالة الاستفهام دلالة متنوعة لا تقف عند غرض واحد، ولهذا قال الإمام عبد القاهر عند حديثه عن التقرير بالفاعل عن طريق الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[١]: "واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه"[٢].

والتقرير هنا ليس لما ولى الهمزة وهو النفى، وإنما التقرير بما بعد النفى وهو: قوله أنه لن يستطيع معه صبرا، أى التقرير بما يعرفه المخاطب من الحكم، وهو هنا أنه قال له هذا القول.

وقيل إن الهمزة فى مثل هذا الأسلوب للنفى، ودخلت على النفى، فنتج عن ذلك الإثبات؛ لأن نفى النفى إثبات، قال الخطيب القزوينى فى تعليقه على الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ..﴾[٣]، وفى قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

"أى الله كاف عبده، وأنتم خير من ركب المطايا؛ لأن نفى النفى إثبات، وهذا مراد من قال إن الهمزة فيه للتقرير، أى التقرير بما دخله النفى، لا التقرير بالانتفاء"[٤].

---

(١) سورة الأنبياء:/٦٢.
(٢) دلائل الإعجاز: /١١٤.
(٣) سورة الزمر: /٣٦.
(٤) الإيضاح: ١/١٤٠.

اعتذار الطالب على ما بدر منه من إنكار:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

أجاب سيدنا موسى عليه السلام بالاعتذار عما بدر منه من إنكار على العالم، وأرجع ما حدث منه إلى نسيان وصية العالم نتيجة غرابة المشهد، وعدم ظهور علة له تجعله مقبولاً عند العقل.

والنهى فى قوله "لا تؤاخذنى" وقوله "ولا ترهقنى" للالتماس والتعطف. والملاحظ أن سيدنا موسى بنى كلامه على التماس عدم المؤاخذة على النسيان ولم يبنه على النسيان مباشرة، فلم يقل إنى نسيت، والسر فى ذلك "انه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر، فالحزامة الاحتراز من صحبة من يطرأ عليه النسيان، ولذلك بنى كلام موسى على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان، ولم يبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقا بالمؤاخذة، فكان كلاما بديع النسيج فى الاعتذار"[(١)].

والتعبير بالمؤاخذة إشارة إلى المجازاة والمعاقبة على ترك الوصية بعدم الاعتراض، وجاءت المؤاخذة على صيغة المفاعلة للمبالغة، لأنها من طرف العالم وحده، وليست من الطرفين كما هو مدلول المفاعلة.

والباء فى قوله "بما" للسببية؛ لأن النسيان سبب ترك الوصية، وترك الوصية سبب للمؤاخذة، فهى سبب السبب، و"ما" فى قوله "بما نسيت" يجوز أن تكون موصولية، أى بالذى نسيته، أو مصدرية، أى بنسيانى، أو نكرة موصوفة، أى شيء نسيته.

---

(١) التحرير والتنوير: م ٧، جـ/١٥، /٣٧٦.

والنسيان هو: "ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره،.. وكل نسيان من الإنسان ذمه الله تعالى به فهو ما كان أصله عن تعمد، وما عذر فيه نحو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم: "رفع عن امتى الخطأ والنسيان"، فهو ما لم يكن سببه منه"(١)، أى لم يكن عن تعمد.

وما ذكره سيدنا موسى من اعتذار بنسيان الوصية يجوز أن يكون نسيانا حقيقيا، روى البخارى من حديث أبى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وكانت الأولى من موسى نسيانا"(٢).

ويجوز أن يكون سيدنا موسى لم ينس الوصية، والتماسه بعدم المؤاخذة على النسيان، لا يراد به نسيان وصية الخضر بل نسيان شيء آخر غير هذه الوصية، وهذا النسيان لا يخلو منه إنسان، وهذا من باب التعريض، والتعريض هو: "اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقى والمجازى"(٣). وذلك بأن تتكلم بكلام لا تريد به ظاهر معناه ، بل تريد معنى آخر يستفاد من مفهوم الكلام، وهو هنا إيهام خلاف المرد لئلا يلزم الكذب.

قال الزمخشري: "أو اخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسى، ليبسط عذره فى الإنكار، وهو من معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب مع التوصل إلى الغرض، كقول إبراهيم هذه أختى، وإنى سقيم"(٤).

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٥١٢.
(٢) صحيح البخارى: ١١٢/٦.
(٣) المثل السائر: لابن الأثير، ٥٦/٣.
(٤) الكشاف: ٤٩٣/٢.

ويجوز أن يكون النسيان مجازاً مرسلاً عن الترك، حيث عبر بالسبب وهو النسيان، وأريد المسبب وهو الترك، والمعنى لا تؤاخذنى بترك الوصية، وهذا الوجه مبنى على أن المؤاخذة بالنسيان لا تحتاج إلى النهى عنها.

قوله: ﴿ ..وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ معطوف على قوله "لا تؤاخذنى" والعطف للتوسط بين الكمالين، فالجملتان متفقتان فى الإنشائية وبينهما جهة جامعة.

والمعنى لا تغشنى ولا تحملنى عسراً من أمرى، وذلك بعدم التسامح معه فيما يحدث منه. فسيدنا موسى يلتمس من العالم الصفح عما كان منه من إنكار.

والتعبير بالإرهاق فيه معنى القهر وتحميله فى الامر ما لايطيق، قال الراغب : "رهقه الأمر غشية بقهر"[(١)]، فالتعبير بالرهق من قبيل الاستعارة، حيث شبهت المعاملة بشدة وعسر بالإرهاق بجامع المشقة والتحميل فوق الطاقة، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية. ويجوز أن تكون استعارة مكنية، بتشبيه العسر بشيء ثقيل يحمل، ثم حذف المشبه به، ودل عليه بشيء من لوازمه وهى الإرهاق.

* * *

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٢١٠.

الحادثة الثانية قتل الغلام بغير حق

قال تعالى ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾[١].

قبل العالم اعتذار الطالب، ووافق على مواصلة الصحبة، فانطلقا يمشيان إلى أن لقيا غلاماً فقتله الخضر، وهنا لم يطق سيدنا موسى صبراً على رؤية هذا الفعل العجيب، فإذا به ينكر على الخضر قتله الغلام، ووصف فعله بأنه بين فى الفساد والمنكر.

روى البخارى من حديث أبى بن كعب: "ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى أقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا"[٢].

الفاء فى قوله "فانطلقا" فاء الفصيحة، أفصحت عن كلام محذوف يفهم من السياق، والتقدير: فقبل الخضر اعتذار موسى، ووافق على مواصلة الصحبة، فخرجا من السفينة، فانطلقا يمشيان على الساحل.

و"حتى" غائية بمعنى إلى، و"إذا" أداة شرط، وجملة الشرط مكونة من جملتين: الأولى لقيا الغلام "لقيا غلاما" والثانية قتل الخضر الغلام "فقتله"، وجواب الشرط هنا إنكار سيدنا موسى على الخضر، وهو ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾. ولا يجوز نحوياً أن تكون جملة "فقتله" جواب الشرط؛ لأن الفعل لا تتوفر فيه شروط اقتران الجواب بالفاء.

---

(١) سورة الكهف:/٧٤.
(٢) صحيح البخارى: ١١٢/٦.

والسؤال: ما السر فى اختلاف جملتى الشرط والجواب فى الحادثتين؟ ففى الحادثة الأولى – وهى خرق السفينة– جاء الشرط مكونا من جملة واحدة ، هى جملة "ركبا فى السفينة"، وجاء جواب الشرط فعل العبد الصالح فى السفينة "خرقها" ، ووقع اعتراض سيدنا موسى على الخضر استئنافا بيانيا؛ فالجملة جواب عن سؤال مقدر من جملتى الشرط والجواب.

وفى الحادثة الثانية – وهى قتل الغلام – جاء الشرط مكونا من جملتين، لقيا الغلام وقتله، وعطف القتل على اللقيا بالفاء للدلالة على أن القتل وقع عقب اللقيا مباشرة بدون مهلة، وجواب الشرط هو اعتراض سيدنا موسى وإنكاره على الخضر هذا القتل، فالجواب هو جملة "قال أقتلت". فلماذا جعل فعل الخضر جواب الشرط فى حادثة خرق السفينة، ووقع اعتراض سيدنا موسى استئنافا بيانيا. وجعل اعتراض سيدنا موسى وإنكاره جواب الشرط فى حادثة قتل الغلام؟.

من المقرر أن جواب الشرط هو محط الفائدة، وهو موضع الترقب والتشوق من السامع وموطن الاستغراب. ففى حادثة خرق السفينة كان صدور الفعل الغريب من الخضر هو محط الفائدة وموضع الترقب والاستغراب، ولهذا جاء ما قام به من فعل غريب – وهو خرق السفينة – جواب الشرط؛ فهى الحادثة الأولى التى ظهر فيها الفعل الغريب العجيب من الخضر.

وفى حادثة قتل الغلام لما عرف من حادثة خرق السفينة أن العبد الصالح من عادته فعل هذه الأمور الغريبة العجيبة، لم يكن فعله فى حادثة قتل الغلام هو موضع الترقب ومحط الاهتمام؛ ولهذا لم يأت فعله جواب الشرط بعد أن تغير الموقف، فأصبح محط الفائدة وموضع الترقب هو موقف سيدنا موسى من هذه الأفعال، وبخاصة بعد اعتذاره بالنسيان عن

الإنكار فى حادثة خرق السفينة، فلما كان رد فعل سيدنا موسى هو المترقب والمنتظر فى حادثة قتل الغلام جعل اعتراضه وإنكاره جواب الشرط، فتأمل بلاغة القرآن المعجزة فى المخالفة بين الحادثتين فى الشرط والجزاء.

وقد أفصح أبو السعود عن المخالفة بين الحادثتين بما شرحناه وذلك فى قوله: "ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ما صدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط، وإبراز ما صدر عن موسى عليه الصلاة والسلام فى معرض الجزاء المقصود إفادته، مع أن الحقيق بذلك إنما هو ما صدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة؛ لاستشراف النفس إلى ورود خبرها لقلة وقوعها فى نفس الأمر، وندرة وصول خبرها إلى الأذهان، ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الأولى، لما أن صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعها مرة مخرج العادة، فانصرفت النفس عن ترقبه إلى أحوال موسى عليه السلام، هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخر، أو يسارع إلى المناقشة كما مر فى المرة الأولى، فكان المقصود إفادة ما صدر عنه عليه الصلاةوالسلام ، ففعل ما فعل"(١).

وقد ذكر الزمخشري أن سبب المخالفة بين الحادثتين هو أن خرق السفينة لم يكن عقب الركوب، وقتل الغلام كان عقب لقائه، وذلك فى قوله: "فإن قلت لم خولف بينهما؟ قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام"(٢).

وما ذكره الزمخشرى بيان لاختيار الفاء دون الواو أو ثم فى العطف على فعل الشرط "لقيا"، ولا يصلح أن يكون بيانا لجعل ما صدر عن

(١) تفسير أبى السعود: ٣/٣٩٥.
(٢) الكشاف: ٢/٤٩٣.

الخضر من جملة الشرط، وجعل اعتراض سيدنا موسى عليه السلام جواب الشرط، لأن الشرط مجموع الجملتين "لقيا غلاما فقتله"، والجواب – وهو اعتراض سيدنا موسى – يتوقف عليهما معا. والمعروف أن الشرط قيد فى الجواب، وأن المقصود بالإفادة هو الجواب؛ ولهذا فإن كلام الزمخشرى لم يبين السر فى جعل اعتراض سيدنا موسى هو المقصود بالافادة.

وذكر البيضاوى أن سبب المخالفة بين الحادثتين هو: "أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل ، فكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام"(١). وفحوى هذا التوجيه أن القتل لكونه أقبح جاء عمدة فى الكلام، ونظم الآية لا يعطى هذا المعنى، فالقتل لم يقع عمدة – أى لم يقع جوابا للشرط– وإنما وقع فى جملة الشرط، أى جاء قيداً للجواب؛ فكيف يكون القيد عمدة، فهذا التوجيه أيضاً لم يبن عن السر فى المخالفة بين الحادثتين، بل إنه يشير إلى أن القتل أجدر بأن يكون جوابا للشرط، وعلى هذا يبقى السؤال كما هو: لماذا عدل عن جعل القتل عمدة فى الكلام، وجيء به قيداً. فالوجه في بيان سر المخالفة بين الحادثتين ما ذكرناه من شرح كلام أبى السعود.

وقد ذكرنا أن جملة "قال" تكررت فى هذه القصة، وجاءت على الاستئناف البيانى إلاّ فى موضعين، الموضع الأول فى هذه الحادثة، وذلك فى قوله: "قال أقتلت..".

وبالتأمل فى ألفاظ جملة الشرط والتى تتكون من جملتى "لقيا غلاماً فقتله" نجد أنه عبر بـ "لقيا" ولم يعبر بـ "صادفا" لأن اللقيا تدل على أنه عثر على شيء كان يبحث عنه، وهذا هو المقصود؛ فلم يكن وجدان الغلام من قبيل المصادفة، بل هو أمر مقصود حصل عليه بعد. بحث وترقب، وأيضاً

(١) تفسير البيضاوى: هامش على حاشية شيخ زادة: ٣/٢٧٠.

الملاقاة أصلها أن تكون من قدام ، ألا ترى أنه لا يقال لقيته من خلفه"[١]، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن اللقيا تدل على الحصول على الشيء بعد بحث وترقب، فهو تعرف على الغلام بالنظر إلى وجهه، فظهر له أن هذا الغلام هو الذي يبحث عنه، قال الراغب: "يقال لقيه يلقاه لقاء ولقيا ولقية، ويقال ذلك فى الإدراك بالحس وبالبصر وبالبصيرة"[٢].

وعبر بالقتل لأن لفظ القتل إذا ذكر من غير قيد انصرف إلى القتل العمد، وهذا يدل على أن قتل الغلام لم يكن عن طريق الخطأ، بل كان أمراً مقصوداً أراد الخضر تحقيقه، ولو عبر بضربه أو وكزه فمات لأفاد أن القتل كان خطأ وليس مقصوداً، وهذا خلاف المقصود.

واختلف فى الغلام المقتول، هل كان بالغاً أم لا؟ "فقال الجمهور لم يكن بالغاً؛ ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب، وهو الذى يقتضيه لفظ الغلام؛ فإن الغلام فى الرجال يقال على من لم يبلغ الحلم، وتقابله الجارية فى النساء، وكان الخضر قتله لما علم من سره، وأنه طبع كافراً كما فى صحيح الحديث، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفراً[٣]. وقيل كان بالغاً؛ لأن كلمة الغلام مشتقة من الغلومة، وهى شدة الشبق، قال الراغب: "الغلام الطار الشارب... واغتلم الغلام إذا بلغ حد الغلومة، ولما كان من بلغ هذا الحد كثيراً ما يغلب عليه الشبق قيل للشبق غلمة، واغتلم الفحل"[٤].

والاستفهام فى قوله: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ..﴾ استفهام إنكارى، فهو ينكر عليه قتل نفس بريئة لم تفعل ما يوجب قتلها، وفيه تعجب

(١) الفروق اللغوية: /٢٥٢.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٤٧٣.
(٣) تفسير القرطبى: ٦/٤٠٦٠.
(٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٣٧٧.

من فعل أمر شديد الغرابة لا يبدو له سبب. ووصفت "نفساً" بصفتين: الأولى "زكية" ومعناها طاهرة من الذنوب، وهى على وزن فعيل من صيغ المبالغة، ولهذا فهى أبلغ من زاكية، وقد قرئ بها. والصفة الثانية "بغير نفس" ومعناها بغير وجه حق، فهذا الغلام لم يقتل نفسا حرم الله قتلها فيقتل قصاصاً، وقتل النفس قصاصاً أحد الأمور الثلاثة التى يحل بها قتل السلم، كما ورد فى الحديث "لا يحل دم أمرئ مسلم إلاّ بثلاث: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل النفس على وجه القصاص". وتخصيص نفى القصاص بالذكر دون الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان "لأنه الأقرب إلى الوقوع نظراً إلى حال الغلام"(١).

وأفادت الصفتان زيادة تفظيع القتل، فالإنكار منصب على الصفتين معاً، ولو أنه قتل نفساً غير متصفة بهاتين الصفتين لم يكن ذلك منكراً، وأكد هذا الإنكار بالقسم ووصف هذا الفعل بأنه بين فى الفساد والنكر، فقال: "لقد جئت شيئاً نكرا".

واختلف فى أي اللفظين أدل على شدة القبح "إمراً" أو "نكراً" فقالت فرقة "نكراً" أدل على شدة القبح من "إمراً"، لأنه قتل بين حاصل، وفى خرق السفينة قتل مترقب ومتوقع، ولآن الإمر – وهو ما يشتد ويعظم من الأمور– لا يلزم أن يكون منكراً، والشيء إنما يكون نكرا إذا أنكرته العقول، ونفرت عنه الطباع والنفوس"(٢)، قال الراغب: "والنكر الدهاء والأمر الصعب الذى لا يعرف"(٣).

(١) تفسير أبى السعود: ٣/٣٩٥.
(٢) حاشية شيخ زادة: ٣/٢٧٠.
(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٥٢٧.

وقالت الفرقة الأخرى إن "إمراً" أدل على شدة القبح من "نكراً"؛ لأنه قتل جماعة نتيجة غرق السفينة، أما النكر فهو قتل نفس واحدة، وهذا أهون من إغراق أهل السفينة.

واختار الطيبي كون الإمر أشد وأقبح من النكر؛ لأن النظم يقتضى التدرج من الأعلى إلى الأدنى، وذلك فى قوله: "وقلت الذي يقتضيه النظم أن يؤخذ من الأغلظ ثم ينزل إلى الأهون، فقتل النفس أهون من الخرق وأغلظ من إقامة الجدار بلا أجرة"(١).

جواب العالم على إنكار سيدنا موسى عليه قتل الغلام:

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(٢).

هذا الجواب لا يختلف عن الجواب السابق إلا بزيادة قوله "لك" وقد أفادت "لك" تقويه التقرير بما حكم به فى أول الأمر، وزيادة اللوم والعتاب على ترك الوصية، والوسم بقلة الصبر، والمبالغة فى الإنكار عليه.

قال ابن الأثير: "الفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير فى الثانية دون الأولى، فقال فى الأولى ﴿أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ﴾، وقال فى الثانية ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ﴾، وإنما جيء بذلك للزيادة فى مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة، والوسم بعدم الصبر"(٣).

وإنما أفادت "لك" زيادة التقرير والعتاب لأن اللام فى "لك" لام التبليغ، "وهى الجارة لاسم السامع لقول أو ما فى معناه بالإذن أو الصيرورة"(٤)؛ لأن المخاطب معلوم من الحوار بدون ذكره، فذكر ضميره مجروراً باللام زاد

(١) حاشية الطيبى على الكشاف: ٥٢٤/٩.
(٢) سورة الكهف: /٧٥.
(٣) المثل السائر: ١٨٨/٢.
(٤) الإتقان: ٢٢٢/١.

الكلام تأكيداً وتقوية، قال الطاهر بن عاشور: "وذلك عندما يكون المقول له الكلام معلوما من السياق فيكون ذكر اللام لزيادة تقوى الكلام وتبليغه إلى السامع، ولذلك سميت لام التبليغ"(١).

سيدنا موسى يضع شرطاً على نفسه لاستمرار الصحبة:

بعد أن أنكر سيدنا موسى عليه السلام على الخضر للمرة الثانية، وزاد الخضر فى العتاب عليه والإنكار على تكرار اعتراضه، بعد كل هذا وضع سيدنا موسى شرطا على نفسه لاستمرار الصحبة، هذا الشرط هو عدم سؤاله أو اعتراضه مرة أخرى بعد هذه الحادثة، وإن حدث منه سؤال انقطعت الصحبة بينه وبين الخضر، فقال:

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾(٢)،

كان سيدنا موسى عليه السلام شديد الرغبة فى استمرار صحبة الخضر وتلقى العلم منه، ولم يستطع أن يعتذر بالنسيان عما حدث منه كما فى المرة الأولى، ولكنه وضع بنفسه شرط استمرار الصحبة إرضاء للعالم واستمالة له، وهو عدم السؤال بعد هذه المرة، وإن وقع منه سؤال وجبت المفارقة، وهذا أمر لا يرغب فيه سيدنا موسى؛ ولذلك عبر عن هذا الشرط بـ "إن" الشرطية دون "إذا" فقال "إن سألتك" ولم يقل إذا سألتك لإبراز سؤاله مرة أخرى فى صورة الأمر النادر قليل الحدوث، وفى هذا دلالة على شدة رغبته فى استمرار الصحبة، وذلك لن يكون إلا بندرة وقوع السؤال.

ويلتمس سيدنا موسى العذر للخضر فى قطع الصحبة إن أنكر فى المرة الثالثة، فقطع الصحبة حينئذ من قبل موسى لمخالفته ما شرطه على

---

(١) التحرير والتنوير: م ٨، جـ ٥/١٦.
(٢) سورة الكهف: /٧٦.

نفسه، وليس من قبل الخضر، فقال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أى بلغت مبلغاً من قبلى يجعل لك العذر فى قطع المصاحبة. وفى "بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا" استعارة تصريحية تبعية، حيث شبه تيقن حصول العذر بالبلوغ، ثم حذف المشبه، واستعير البلوغ للتيقن، ثم اشتق من البلوغ بلغ بمعنى تيقن.

قال صلى الله عليه وسلم: "وددنا أن موسى صبر حتى يقص علينا من أمرهما"(١).

* * *

(١) صحيح البخارى: ٦/١١٦.

الحادثة الثالثة بناء الجدار لأهل القرية اللئام

قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾(١).

انطلق الخضر وموسى إلى أن أتيا أهل قرية، وقد حل بهما الجوع، ولم يقدم لهما أحد طعاما، فطلبا الطعام بأنفسهما من أهل القرية، فامتنعوا عن تقديم الطعام لهما، وفى هذا الموقف وجدا جداراً قارب على السقوط، فأقامه الخضر وبناه، وهنا لم يطق سيدنا موسى صبراً، ولم يستطع تنفيذ ما شرطه على نفسه، فاعترض على ما صنعه الخضر مع أهل القرية اللئام، فهؤلاء لا يستحقون أن يعمل لهم عملاً فيه خير ونفع لهم، فقال سيدنا موسى محرضاً ومعرضاً: كان الأولى أن تأخذ على هذا العمل أجراً من هؤلاء حتى نستدفع به الضرورة.

الفاء فى قوله "فانطلقا" فاء الفصيحة كما سبق، أى فوافق الخضر على استمرار الصحبة بموجب شرط عدم السؤال مرة أخرى فانطلقا.

وجاء بناء الشرط والجواب فى هذه الحادثة على نسق حادثة قتل الغلام؛ فالشرط مكون من عدة جمل هي: ﴿..أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ..﴾ وجاءت الجمل معطوفة بالفاء للدلالة على الترتيب والتعقيب، فهذه الأفعال حدثت متعاقبة بدون مهلة. والجواب هو اعتراض سينا موسى عليه السلام بقوله: ﴿..قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وذلك لأن معرفة موقف سيدنا موسى من فعل سيدنا الخضر هو موضع الاهتمام ومحط الفائدة، ونحن فى شوق لمعرفة موقف

---

(١) سورة الكهف: /٧٧.

سيدنا موسى، أيلتزم بما شرطه على نفسه فلا يسأل، أم يعترض وينكر فتنقطع الصحبة ويحدث الفراق.

وعبر بالإتيان فى قوله "أتيا" دون المجيء لأن الإتيان فيه إشارة إلى كون الآتي غريباً على من يأتيهم، وهذا أدعى لاستجابة طلبه، قال ابن منظور: "الأتى الرجل يكون فى القوم ليس منهم، ولهذا قيل للسيل الذي يأتى من بلد قد مطر فيه إلى بلد لم يمطر فيه أتيٌّ، وأصل هذا من الغربة؛ أي هو غريب، يقال رجل أتى وأتاوى أى غريب"(١).

وهناك فرق آخر بين أتى وجاء، وهو أن أتى يحتاج إلى مفعول هو المقصود بالإتيان، بخلاف جاء، فإنه يكتفى فيه بالفاعل، قال أبو هلال: "الفرق بين قولك: أتى فلان، وجاء فلان، أن قولك: جاء فلان كلام تام لا يحتاج إلى صلة، وقولك: أتى فلان . يقتضى مجيئه بشيء"(٢).

قوله تعالى: "أتيا أهل قرية" ذكرت كلمة "أهل" هنا، ولم تحذف كما فى قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا..﴾(٣)،على الإيجاز بالحذف أو الإسناد المجازى بإيقاع الفعل على المكان؛ لأن الغرض من سؤال القرية فى حكاية قول إخوة يوسف لأبيهم المبالغة فى ظهور أمر السرقة وأنها شاعت وذاعت بين الناس إلى درجة أن معرفة هذا الأمر قد تجاوز أهل هذه القرية إلى القرية نفسها، فأصبحت القرية تعرف ما يعرف أهلها، ولو سئلت لأجابت بما يصدق كلامهم، والذى سوغ هذا المعنى مجيء الكلام على حذف المضاف "أهل" أو على المجاز العقلى؛ لأن القرية نفسها يستحيل أن تسأل.

---

(١) لسان العرب: مادة أتى.
(٢) الفروق اللغوية:/٢٥٥.
(٣) سورة يوسف:/٨٢.

أما هنا فإن إتيان القرية يمكن أن يكون على الحقيقة، ولا يحتاج إلى تقدير محذوف أو حمل الكلام على المجاز، ولكن التعبير القرآنى عدل عن هذا وذكر كلمة "أهل" لأن المراد من الجملة القرآنية تصوير شدة بخل أهل هذه القرية وقبح أخلاقهم، فهؤلاء لم يقدموا الطعام لغريبين دخلا عليهم قصداً كعادة الكرام فى تقديم الطعام للقادم الغريب من غير حاجة إلى طلب الطعام، ولم يقدموا لهما الطعام حين طلباه بأنفسهما، فهم قوم لئام لا يستحقون أن يعمل العبد الصالح لهم خيراً، والتعبير القرآنى سد أى مخرج لوجود عذر لهم فى ذلك، فجاء التعبير بذكر كلمة أهل مضافة إلى قرية، ولم يقل حتى إذا أتيا قرية، حتى لا يكون لهم عذر فى عدم إطعام الغربيين، فالاكتفاء بإتيان القرية بدون ذكر الاهل قد يفهم منه أن القرية – حين طلبا الطعام– كانت خالية من سكانها للعمل أو لأشياء أخرى، وحينئذ يكون لهم عذر فى عدم إطعام الغريبين، فذكر الأهل قطع الاعذار وكشف عن حقيقة خلق هؤلاء القوم اللئام.

قوله: ﴿.. **اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا** ..﴾، الألف والسين والتاء للطلب، أى سألا أهلها الطعام، "فإن أخر كسب الجائع الإقدام على المسألة والاستطعام؛ وهو أمر مباح فى كل الشرائع، وربما يجب ذلك عند خوف التلف والضرر الشديد[١].

وجملة "**اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا**" فى محل جر صفة لـ "قرية"، ولا يجوز أن تكون فى محل نصب صفة لـ "أهل" لأنه لو كان هذا هو المقصود لقال: استطعماهم، حتى يكون فى الجملة ضمير يعود على الموصوف، وهنا يتبادر سؤلان: الأول ما السر فى مجيء الجملة صفة لـ "قرية" فقال سبحانه:

(١) حاشية شيخ زادة: ٣/٢٧٠.

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾، ولم تأت صفة لـ "أهل" فيقال استطعماهم. والسؤال الثانى: ما السر فى ذكر كلمة أهل مضافة إلى ضمير القرية، فقال سبحانه: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾، وكان من الممكن ترك ذكرها، فيقع الفعل على ضمير القرية، فيقال استطعماها؟.

أما السؤال الأول فجوابه: أن المقصود من جملة الصفة زيادة التشنيع على أهل هذه القرية والمبالغة فى ذمهم، وأنهم فعلوا ما فعلوا قصداً، وليس لهم عذر إلاّ بخلهم ولؤمهم، فلو قيل استطعماهم لكان لهم عذر فى عدم إطعام الضيف؛ لأنهم قد يكونون بعيدين عن القرية وعن بيوتهم ومحل طعامهم، فكيف يقدمون لهما طعاماً، فهم معذورون فى هذا. ولكن القرآن قطع هذا العذر فقال "اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا" فهم فى داخل القرية، وقاطنون بها، وحينئذ لا يوجد لهم أدنى عذر فى الامتناع عن إطعام الضيف.

قال أبو السعود: "ولعل العدول عن استطعماهم على أن تكون صفة للأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم؛ فإن الإباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع"(١).

وأما إجابة السؤال الثانى فهو أنه لو جاءت الصفة بدون ذكر "أهل فقيل استطعماها، لأفاد ذلك أن السؤال وقع على القرية نفسها على طريقة المجاز العقلى، وفى هذا مبالغة فى استيعاب السؤال كل من فى القرية فرداً فرداً، إلى درجة أن السؤال قد تجاوز الأفراد إلى المكان، فسئلت القرية عن الطعام، وهذه المبالغة ليست مقصودة هنا، ولا مناسبة للمقام؛ لأنه من المستبعد أن يكون سؤالهما قد استوعب كل أفراد القرية، بل المقصود أنهم سألوا بعض أهل القرية وخاصة الرجال منهم، فكان المناسب ذكر الأهل فى

(١) تفسير أبى السعود: ٣٩٦/٣.

قوله تعالى: "**اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا**"؛ لأن المبالغة فى استيعاب السؤال كل الأفراد ليست مقصودة، وعلى هذا يكون فى كلمة "أهلها" مجاز مرسل علاقته الكلية، حيث عبر بالكل وأريد الجزء.

وقد ذكر بهاء الدين السبكى نقلاً عن والده تقى الدين السبكى أن صلاح الدين الصفدى سأل والده عن سر وقوع جملة "اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا" صفة لقرية، ولم يأت التعبير استطعماهم، فتكون صفة لأهل، وقد صاغ الصفدى السؤال فى نظم، ومنه:

ولكننى فى الكــهف أبصرت آية — بها الفكر فى طول الزمان عنانى
وما هى إلا "اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا" فقد — تــرى استطــعماهم مثله ببـــيان
فما الحكمة الغراء فى وضع ظاهر — مــكان ضـــــمير إن ذاك لــشان

وأجابه تقى الدين السبكى فى نظم أيضاً:

أرى "إستطعما" وصفا على قرية جرى — وليس لها والنـــحو كالمــيزان
صناعــته تقتـضى بأن اســـتتار ما — يعود عليه ليس فى الإمــكان
وليس جـــوابا لا ولا وصـــف أهلــها — فلا وجه للإضــمار والكتــمان
وهذى ثـــلاث ما ســـواها بممــكن — تعين منها واحـــد فســبانى

وجواب تقى الدين لا يخرج عما ذكرناه[(١)].

قوله تعالى: ﴿..**فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا** ..﴾ الفاء عاطفة، و"أبوا" معطوف على "استطعما" فالجملة فى محل جر صفة لقرية، ووصل بينهما للاشتراك فى الحكم الإعرابى، وجاء الوصل بالفاء دون ثم للدلالة على سرعة الإباء عقب طلب الطعام، فهم لم يتشاوروا مع بعضهم فى هذا الأمر، ولم يراجعوا

---

(١) ينظر عروس الأفراح – شروح التلخيص: ٤٦٠/١، ٤٦١، وروح المعانى للألوسى: م/٩، جـ ٦/١٦، ٧.

أنفسهم، بل أجابوا بالرفض مباشرة، وهذا دليل على دناءة أصلهم، وشدة بخلهم، وأن هذا طبع متأصل فيهم.

والإباء هو الامتناع عن فعل المطلوب، وجاء التعبير بـ "أبوا" دون امتنعوا لأن الإباء أدل على شدة الامتناع ، قال الراغب "الإباء : شدة الامتناع، فكل إباء امتناع، وليس كل امتناع إباء، ومنه رجل أبي ممتنع من تحمل الضيم"(١).

قوله: "**أَن يُضَيِّفُوهُمَا**" أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر وقع مفعولا به للفعل "أبوا"، أى أبوا أن يطعموهما، وجاء التعبير بالضيافة دون الإطعام لأن فى التعبير بالضيافة زيادة تشنيع على بخلهم؛ "لأن الكريم قد يرد السائل المستطعم ولا يعاب كما إذا رد غريبا استضافه، بل لا يكاد يرد الضيف إلاَّ لئيم، ومن أعظم هجاء العرب فلان يطرد الضيف، وعن قتادة شر القرى التى لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه"(٢).

وذهب القونوى إلى أن نفى الإباء عن الضيافة لا يستلزم الإباء عن الإطعام؛ لأن الضيافة أخص من الإطعام، فالضيافة هى الإطعام فى المنزل على وجه الإكرام، أما الإطعام فإنه قد يكون فى المنزل وقد يكون فى خارجه، ونفى الاخص وهو الضيافة لا يستلزم نفى الأعم وهو الإطعام، ومعنى هذا أن التعبير بـ " **فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا**" لا يستلزم منه الإباء عن إطعامهما، فما السر فى التعبير بالأخص وهو إباء الضيافة دون الأعم وهو إباء الإطعام، مع أنه هو المسؤول؟ وقد كشف القونوى عن السر فى ذلك بقوله: "ولعل التعبير به للإشارة إلى أنهما يستحقان أن يضيفوهما وأن

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٤.
(٢) روح المعانى: م ٩، جـ ٨/١٦.

يطعموهما فى منازلهم على وجه الاحترام والإكرام؛ مع أن هؤلاء القوم أعرضوا عن إطعامهم ولو فى غير منازلهم، وفيه بيان كمال دناءتهم وشدة شكيمتهم"[١].

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾، الفعل "فوجدا" معطوف على فعل الشرط "أتيا" وجاء العطف بالفاء للدلالة على تعاقب الأحداث من غير تراخ بينها. وعبر بالجدار دون الحائط "لأن الحائط يقال اعتباراً بالإحاطة بالمكان، والجدار يقال اعتباراً بالنتوّ والارتفاع"[٢]، فالجدار كان حائطاً مرتفعاً آيلا للسقوط.

وجملة "يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ" فى محل نصب صفة لـ "جداراً" أى قارب على السقوط، وقد أسندت الإرادة إلى ضمير الجدار، والجدار جماد لا إرادة له ولا عزيمة، وهذا قرينة على أن فى الكلام مجازاً، وهو إما من قبيل الاستعارة التصريحية التبعية، حيث شبهت المداناة والمشارفة والمقاربة على السقوط بإرادة من هم بالانحطاط، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه، ثم أشتق من الإرادة يريد. وأفادت الاستعارة تصوير تصدع الجدار وقرب تهدمه، قال الزمخشري: "استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة"[٣].

وأما من قبيل الاستعارة المكنية بتشبيه الجدار بإنسان ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وإسناد اللازم وهو الإرادة إلى الجدار استعارة تخييلية، وهى قرينة المكنية، والاستعارة المكنية أفادت تشخيص الجدار وإجراء صفات الأحياء عليه، وفى هذا مبالغة فى قرب سقوط الجدار؛ لأنه فعل ناتج عن إرادة وعزيمة.

---

(١) حاشية القونوى على تفسير البيضاوى: ١٣٩/١٢.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٨٧.
(٣) الكشاف: ٤٩٤/٢.

وقد تعرض لهذه الجملة معظم العلماء فى معرض حديثهم عن قضية وقوع المجاز فى القرآن الكريم كأبى عبيدة وابن قتيبة والزمخشرى وغيرهم، وهذا ابن قتيبة يرد على الطاعنين على القرآن بالمجاز من خلال هذه الجملة، وذلك فى قوله: "وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب، لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تسأل، وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم، ولو كان المجاز كذبا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً كان أكثر كلامنا فاسداً؛ لأنا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر، ولو قلنا للمنكر لقوله "جداراً يريد ان ينقض" كيف كنت أنت قائلاً فى جدار رأيته على شفا انهيار: رأيت جداراً ماذا؟ لم يجد بداً من أن يقول: جداراً يهم أن ينقض، أو يكاد أن ينقض. وأيا ما قال فقد جعله فاعلاً، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى فى شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ"[١].

ولا شك أن التعبير بالإرادة على المجاز أدل وأبلغ فى تصوير قرب سقوط الجدار؛ لأن الإرادة "قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجعل اسما لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغى أن يفعل أو لا يفعل"[٢]. أما التعبير بـ "قارب" على الحقيقة فليس فيه دلالة على قوة الداعى إلى وقوعه، بل إن المقاربة تدل على استبطاء الوقوع، قال الراغب: "وكاد الزند إذا تباطأ بإخراج ناره، ووضع كاد لمقاربة الفعل[٣].

وقد كشف ابن جنى عن السر فى التعبير بالاستعارة دون الحقيقة فى قوله: "يريد" معناه قد قارب أن ينقض أو شارف ذلك، وهو عائد إلى معنى

(١) تأويل مشكل القرآن: /١٣٢، ١٣٣.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٢١٢.
(٣) السابق:/٤٦٢.

يكاد، وقد جاء ذلك عنهم، وحسن هنا لفظ الإرادة لأنه أقوى فى وقوع الفعل؛ وذلك لأنها داعية إلى وقوعه، وهى أيضاً لا تصح إلا مع الحياة ولا يصح الفعل إلا لذى الحياة، وليس كذلك كاد، لأنه قد يقارب الأمر ما لا حياة فيه، نحو مميل الحائط، وإشراق ضوء الفجر"(١).

والانقضاض انفعال من قضض، وفيه دلالة على شدة السقوط، قال صاحب الأساس: "وقض الحائط: هدمه هدماً عنيفاً فانقض"(٢).

وقيل هو "افعلال من النقض كاحمرّ من الحمرة"(٣)، فالنقض هو الهدم.

قوله "فأقامه" معطوف على "فوجدا" وقد تمت الجملة الشرطية بهذه الجملة، وأفادت الفاء أن الإقامة حدثت عقب وجدان الجدار مباشرة.

واختلف فى كيفية إقامة الجدار، "فقيل هدمه ثم قعد يبنيه، وقال سعيد بن جبير مسحه بيده وأقامه فقام، وهذا القول هو الصحيح، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل والأولياء"(٤).

اعتراض سيدنا موسى على عدم أخذ الأجر على إقامة الجدار:

قال تعالى: ﴿ ..قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾.

وقعت جملة "قال لو شئت.." جوابا للشرط المكون من ثلاث جمل؛ لأن المقصود الأهم معرفة موقف سيدنا موسى، أيعترض أم يصبر؟ وهذا هو الموضع الثانى الذي لم تأت فيه جملة "قال" استئنافا فى هذه القصة.

(١) المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات: ٣١/٢.
(٢) أساس البلاغة: /٥١٢.
(٣) تفسير أبى السعود: ٣٩٦/٣.
(٤) تفسير القرطبى: ٤٠٦٦/٦.

و"لو" حرف امتناع لامتناع، أى امتناع الجواب لامتناع الشرط، وهى من أدوات الشرط، ويكثر اقتران جوابها باللام إذا كان مثبتا.

واعتراض سيدنا موسى هنا ليس على إقامة الجدار، ولكن على ترك أخذ الأجر على إقامته وهما فى أشد الحاجة إلى الأجر خاصة بعد امتناع أهل القرية عن إطعامهما، فالمقصود بالاعتراض التعريض بأن ما فعله من إقامة الجدار فضول منه؛ لأنه لم يطلب منه هذا الفعل، وليست هناك فائدة تعود عليهما من فعله، فالخضر فعل ما لا يطلب منه من غير أجر، وكيف يأخذ أجراً على عمل لم يطلب منه أحد عمله، قال البيضاوى: "تحريضاً على أخذ الجعل لينتعشا به، أو تعريضاً بأنه فضول؛ لما فى "لو" من النفى، كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه"(١).

وحذف مفعول المشيئة، والتقدير: لو شئت اتخاذ أجر لتخذت عليه أجراً، وهذا موضع من مواضع حذف المفعول أشار إليه الإمام عبد القاهر، ويتحقق فى وقوع فعل المشيئة أو الإرادة فعلاً للشرط، ولم يكن فى تعلقه بمفعوله غرابة، وفائدة الحذف فى هذا الموضع البيان بعد الإبهام، وهذا أدعى إلى تمكين المعنى فى النفس، قال الإمام عبد القاهر: "وذلك أن فى البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له، أبداً لطفاً ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك. وانت إذا قلت "لو شئت" علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة فى المعنى بشيء، فهو يضع فى نفسه أن ههنا شيئا تقتضى مشيئة له أن يكون أو ان لا يكون.

(١) تفسير البيضاوى: هامش على حاشية شيخ زادة، ٣/٣٧١.

فإذا قلت "لم تفسد سماحة حاتم" عرف ذلك الشيء، ومجيء المشيئة بعد "لو" وبعد حروف الجزاء وهكذا موقوفة غير معداة إلى شيء كثير شائع.. إلا أن البلاغة فى أن يجاء به كذلك محذوفاً"(١).

قوله "لتخذت" اللام واقعة فى جواب "لو" و "اتخذت" افتعل من تخذ، أدغمت فاء الفعل وهى التاء الاولى فى تاء الافتعال، قال الزمخشري "والتاء" فى "تخذ" أصل، كما فى تبع، واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع، وليس من الأخذ فى شيء"(٢). وقيل إنه افتعل من الأخذ، وأصله ائتخذ، أبدلت الهمزة ياء، ثم أبدلت الياء تاء، وأدغمت التاء التى أصلها همزة فى تاء الافتعال، فصار اتخذ(٣).

وتنكير المفعول "أجراً" أفاد النوعية، أى نوعا خاصا من أنواع الأجر يناسب حرمانهما وسوء حالهما وهو الطعام.

وبهذا الاعتراض انتهت الصحبة؛ لأن سيدنا موسى لم يستطع تنفيذ ما شرطه على نفسه، وها هو الخضر يعلن ذلك.

إعلان انتهاء الصحبة:

قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(٤).

أى هذا وقت الفراق بيننا تنفيذا لما حكمت به على نفسك من انتهاء الصحبة إن صدر منك سؤال أو اعتراض.

---

(١) دلائل الإعجاز: /١٦٣، ١٦٤.
(٢) الكشاف: ٢/٤٩٥.
(٣) ينظر: حاشية شيخ زادة، ٣/٢٧١.
(٤) سورة الكهف:/٧٨.

والمشار إليه بـ "هذا" هو الفراق المترتب على السؤال الثالث المدلول عليه بقوله: "فلا تصاحبنى"؛ فلكونه متصوراً وحاضراً فى الذهن نزل منزلة المحسوس المشاهد، فأشار إليه بـ "هذا" وجعله مبتدأ وأخبر عنه بـ "فراق"، كما فى قولنا: هذا أخوك، قال الزمخشرى: "فإن قلت "هذا" إشارة إلى ماذا؟ قلت قد تصور فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام ".. **إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي**.." فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه كما تقول هذا أخوك، فلا يكون هذا إشارة إلى غير الأخ،ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث، إي هذا الاعتراض سبب الفراق"(١).

ويجوز أن يكون المشار إليه الوقت الحاضر، أى هذا الوقت وقت الفراق(٢).

والإخبار عن المبتدأ بالمصدر "هذا فراق" أفاد مبالغة فى تحقيق معنى الفراق؛ لأن الإخبار بالمصدر يفيد أن المبتدأ عين الخبر، وكأن المبتدأتجسم من الفراق.

قوله ﴿**هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾أضيف المصدر "فراق" إلى الظرف "بين" على سبيل الاتساع للمبالغة فى تحقق الفراق، بحيث إن الفراق قد تجاوز الشخصين إلى المكان الذي بينهما، وقد قرئ على الأصل بتنوين "فراقٌ" وقطعها عن الإضافة، وفتح "بينك" على الظرفية. قال الراغب: ""بين موضوع للخلالة بين الشيئين ووسطهما، ويستعمل تارة اسما وتارة ظرفا غير متمكن، ولا يستعمل "بين إلاّ فيما كان له مسافة، أوله عدد اثنان فصاعداً، ولا يضاف إلى ما يقتضى معنى الوحدة إلاّ إذا كرر"(٣). وأضيف "بين" إلى

(١) الكشاف: ٤٩٥/٢.
(٢) تفسير البيضاوى: حاشية شيخ زادة، ٢٧١/٣.
(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٦٦.

الواحد لأنه كرر ذكره معطوفاً على الأول "وبينك"، وعدل عن الإضافة إلى الجمع فلم يقل بيننا مع أنه أخصر إلى الإضافة إلى الواحد مع تكرار "بين"، "بينى وبينك" لمزيد من تأكيد الفراق بينهما بالتنصيص على كل واحد منهما بضميره الخاص به، التكلم فى حق سيدنا الخضر والخطاب فى حق سيدنا موسى عليهما السلام(١).

قوله "**سَأُنَبِّئُكَ..**" جاءت هذه الجملة غير معطوفة على ما قبلها لأنها وقعت جوابا عن سؤال تضمنه الكلام السابق، وكأن سيدنا موسى سأل بعد إعلان الفراق هلى تخبرنى عن سبب هذه الأفعال الغريبة كما ذكرت فى شرط الاتباع؟ فكان الجواب "سَأُنَبِّئُكَ" وجاء الجواب مؤكداً بالسين لنأكيد الوعد بالإنباء وعدم تأخيره. وعبر بالنبأ ولم يعبر بالخبر، فلم يقل سأخبرك؛ لأن "النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة(٢).

وعبر بـ "**أُنَبِّئُكَ**" بتضعيف العين مضارع نبَّأ، ولم يعبربأُنْبِئُكَ بالتخفيف مضارع أنبأ على وزن أفعل؛ لأن فعّل أبلغ من أفعل، ففعَّل يدل على تكرير الفعل، وتحقق وقوعه، فتضعيف عين الفعل يدل على وقوع الفعل مرة بعد مرة، قال الراغب: "ونبأته أبلغ من أنبأته، ويدل على ذلك قوله ﴿**فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾(٣)، ولم يقل أنبأنى بل عدل إلى نبَّأ الذى هو أبلغ تنبيها على تحقيقه وكونه من قبل الله"(٤).

---

(١) ينظر تفسير القرطبى: ٤٠٧٣/٦؛ والبحر المحيط: ١٤٤/٦.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم:/ ٥٠٠.
(٣) سورة التحريم: /٣.
(٤)المرجع السابق:/٥٠١.

قوله "**بتأويل**" التأويل هو: "رَدّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علما كان أو فعلاً"(١). والمراد به هنا عاقبة ومصير وحكمة الأفعال التى حدثت من الخضر، ولا يراد بها ظاهرها ، ولذلك خفت على سيدنا موسى.

وعبر بالتأويل ولم يعبر بالتفسير؛ لأن التفسير يطلق على بيان مفردات الألفاظ والجمل. بحسب ظاهر مدلولها، قال أبو هلال العسكرى: "وتفسير الكلام أفراد آحاد الجملة ووضع كل شيء منها موضعه"(٢)، بخلاف التأويل، فإن المراد به معرفة ما وراء الظاهر بالوقوف على باطنه، ولذلك يستعمل التأويل فى معرفة ما وراء الظاهر بالوقوف على باطنه، ولذلك يستعمل التأويل فى معرفة عاقبة الرؤيا، وفى معرفة حقيقة المتشابه، ومادة "فسّر" لم تأت فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾(٣).

قوله: ﴿**مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾، "ما" اسم موصول أضيف إليه التأويل، والمراد بالموصول تلك الأفعال التى صدرت عن الخضر عليه السلام، وهى خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، وعبر عنها بالموصول لتفخيم هذه الأفعال وعظم أمرها. وصلة الموصول جملة "لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا"، وجاءت الصلة بنفى استطاعة سيدنا موسى الصبر على هذه الأفعال، ولم تأت بالأفعال نفسها، فلم يقل بتأويل ما فعلت أو ما رأيت وشاهدت، للتسجيل عليه بعدم قدرته على الصبر، ولتذكيره بحكمه الذى

(١)السابق:/٢٧.
(٢) الفروق اللغوية: /٤٣.
(٣) سورة الفرقان:/٣٣.

حكم به عليه فى أول اللقاء، حين قال له "إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا" وفى هذا " نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب"(١).

قال القرطبى: "وقيل فى تفسير هذه الآيات التى وقعت لموسى مع الخضر أنها حجة على موسى، وذلك أنه لمّا أنكر أمر خرق السفينة نودى: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحاً فى اليم، فلما أنكر أمر الغلام قيل: أين إنكارك هذا من وكزك القبطى وقضائك عليه، فلما أنكر إقامة الجدار نودى أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجر"(٢).

والآن نحن فى شوق لمعرفة حقيقة هذه الأفعال الغريبة التى هى شر محض فى ظاهرها، وذلك فى حادثتى خرق السفينة وقتل الغلام. أما إقامة الجدار فظاهره أنه فعل خير لقوم لا يستحقون الخير، فهذه الأفعال لا تتفق مع العلم القائم على الظاهر ، وتحكيم العقل فى قبولها ورفضها، أما باطنها فمبنى على حكم عظيمة وفوائد جليلة.

(١) تفسير أبى السعود: ٣٩٦/٣.
(٢) تفسير القرطبى: ٤٠٧٢/٦.

تأويل حادثة خرق السفينة

قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[١].

بدأ العبد الصالح الخضرفى تأويل الأفعال الغريبة التى لم يطق سيدنا موسى صبراً عليها وجاء التأويل وفق ترتيب وقوع الأفعال، فبدأ بتأويل حادثة خرق السفينة، وقد علل خرق السفينة وهى فى عرض البحر بأن خرقها وجعلها ذات عيب كان سببا فى بقائها لأصحابها الضعفاء، وخلوصها من يد هذا الملك الظالم الذى كان يغصب السفن الصالحة من أصحابها، ولا يأخذ السفن المعيبة، فجعل السفينة ذات عيب بخرقها قد حقق خيراً لأصحابها، لأنهم ضعفاء لا يستطيعون منع هذا الملك الظالم من غصب سفينتهم؛ فخرق السفينة شر فى الظاهر، ولكنه خير فى الباطن، فكون هؤلاء المساكين يملكون سفينة بها عيب يمكن إصلاحه خير لهم من أن تغصب السفينة التى يتعيشون بها فيصيروا معدومين لا سفينة لهم.

وهذه الحادثة وأمثالها ما هى إلا رمز لكل أمر مكروه يحدث للإنسان ، ولكن مع الصبر يتحقق أن هذا الأمر كان خيراً له، قال القرطبى: "وتحصل من هذا الحض على الصبر فى الشدائد، فكم فى ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله: ﴿..وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ..﴾[٢]"[٣].

---

(١) سورة الكهف:/٧٩.
(٢) سورة البقرة:/٢١٦.
(٣) تفسير القرطبى: ٤٠٧٥/٦

قوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ﴾ "أما" حرف شرط وتفصيل وتوكيد، قائم مقام أداة الشرط وفعل الشرط، فهو بمعنى: مهما يكن من شيء فالسفينة كانت، ويجب اقتران جوابها بالفاء، والفاء لا تدخل على تاليها مباشرة، بل تدخل على تالى تاليها، فيجب أن يفصل بينها وبين الفاء بفاصل(١).

و"السفينة" مبتدأ، والخبر جملة "فكانت لمساكين" والفاء واقعة فى جواب "أما" فالتعبير بـ "أما" أفاد توكيد الخبر وتحقيقه، وتعظيم سبب جعل السفينة معيبة، قال الزمخشرى مبينا فائدة التعبير بـ "أما" : "و "أما" حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء، وفائدته فى الكلام أن يعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذاك وانه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة؟ قلت أما زيد فذاهب، ولذلك قال سيبويه فى تفسيره، مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مدل لفائدتين: بيان كونه توكيداً، وأنه فى معنى الشرط"(٢).

و "أل" فى السفينة للعهد الذكرى، أى السفينة التى خرقها.

قوله "فكانت" جيء بفعل الكون، ولم يقل فهى لمساكين أو فلمساكين لتحقيق الخبر وتأكيد نسبته إلى السفينة؛ لأن كان هنا للزمان القريب من وقت الحديث، فدلت "كان" على تأكيد استمرار كون السفينة لمساكين، وأن الوصف ثابت لم يتغير، قال الزمخشرى: "كان لإيقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو هنا لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام"(٣).

(١) ينظر: شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك: ٢/٣٥٣-٣٥٦.
(٢) الكشاف: ١/٢٦٦.
(٣) الكشاف: ٢/٥٠٨.

قوله "لِمَسَاكِينَ" اللام للملك، والمساكين جمع مسكين، والمسكين هو الذي يرق له الإنسان إذا تأمل حاله، وكل من يرق له الإنسان يسميه مسكينا"(١)، فالإنسان يرق للمسكين نظرا لما عليه من خضوع وذلة وسوء حال، سواء كان له مال أو كان معدما، قال ابن منظور: "الأصل فى المسكين أنه من المسكنة، وهو الخضوع والذل، ولهذا وصف الله المسكين بالفقر لما أراد أن يعلم أن خضوعه لفقر لا لأمر غيره بقوله عز وجل: "يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ"(٢)، وهو الذى لصق بالتراب لشدة فقره، وفيه أيضاً حجة لمن جعل المسكين أصلح حالاً من الفقير، لأنه أكد حاله بالفقر، ولا يؤكد الشيء إلاّ بما هو أوكد منه"(٣).

فليس المقصود بالمسكين هنا بيان درجة فقره، والموازنة بينه وبين الفقير فى قلة المال والحاجة إليه، بل المقصود به الضعيف الخاضع الذليل الذى لا يقدر على مواجهة هذا الملك الظالم، وقد يكون هذا المسكين عنده مال، ولكن المال لا يجدى فى دفع ظلم الغاصبين، ولهذا وصف المساكين بقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ لإبراز حالة الضعف والمذلة والخضوع ، ولو لم تأت الصفة لفُهِم من الكلام أن المساكين يملكون السفينة ولا يعملون عليها، بل يعمل عليها أشخاص آخرون عندهم القدرة على مواجهة الملك الظالم، وحينئذ لا فائدة من جعل السفينة معيبة، ولهذا جاءت الصفة للدلالة على أن المساكين ملاك السفينة هم العاملون عليها، وفى ذلك إظهار عدم قدرتهم على مواجهة الغاصب.

---

(١) الفروق اللغوية: /١٤٥.
(٢) سورة البلد: /١٥، ١٦.
(٣) لسان العرب : مادة سكن.

وجاء تقييد العمل بكونه "فى البحر" مع أن العمل على السفينة لا يكون إلاّ فى البحر للدلالة على انحصار سبل النجاة والهروب بالسفينة من هذا الملك الظالم.

قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا..﴾ الفاء للسببية، أى إرادة إعابة السفينة مسبب عما قبلها، وعبر بإرادة الإعابة ولم يعبر بالإعابة مباشرة، فيقال فأعبتها "ليدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل"(١). كما أن التعبير بإرادة العيب فيه رد على ما أنكره سيدنا موسى عليه حين خرقها، أى أردت إعابتها ولم أرد إغراق أهلها كما قلت.

وفى التعبير "أن أعيبها" مجاز مرسل، حيث عبر بالمسبب وهو العيب وأريد السبب وهو الخرق، والمجاز أفاد المبالغة فى قوة السبب وهو الخرق، فلقوته لا يتخلف المسبب عنه.

ذكر الخضر سببين لخرق السفينة وجعلها ذات عيب حتى تسلم لأصحابها: السبب الأول: أن السفينة مملوكة لمساكين ضعفاء لا يستطيعون حماية سفينتهم، والسبب الثاني: أن هناك ملكا ظالماً يأخذ كل سفينة سليمة غاصبا لها من اصحابها، فخرق السفينة وجعلها ذات عيب مسبب عن هذين السببن، فما السر فى تقديم المسبب بجعله عقب السبب الأول قبل أن يذكر السبب الثاني؟

لعل السر فى ذلك الإشارة إلى أن السبب الأهم هو أن السفينة ملك لمساكين، ولهذا لم يخرق كل السفن الأخرى مع تحقق وجود هذا الملك الغاصب؛ لأن أصحابها ليسوا مساكين، فالذي دفعه إلى خرق هذه السفينة

(١) التحرير والتنوير: م/٨، جـ/١٢/١٦.

دون بقية السفن هو أن أصحابها مساكين، ولهذا أتى بقوله : "فأردت أن أعيبها" عقب هذا السبب، مع مراعاة وجود السبب الثانى.

أو أن التقديم للعناية والاهتمام بالمسبب نفسه، وهو إعابة السفينة؛ لأن هذا المسبب يتحقق به الرد على سيدنا موسى فى اعتراضه على خرق السفينة بأن خرقها لأجل إغراق أهلها، فكان الاهم بالنسبة للخضر دفع هذا الإنكار والاعتراض، بأن خرق السفينة لإرادة معيبها لا لإرادة إغراقها.

كما أن فى التقديم دفع توهم رجوع الضمير فى "أعيبها" إلى "كل سفينة"؛ لأن الضمير يعود على أقرب مذكور، مع أن المقصود رجوعه إلى السفينة المعهودة، فتأخير "فأردت أن أعيبها" يؤدى إلى الفصل بين السفينة وضميرها، ويوهم رجوع الضمير إلى كل سفينة.

وقد أفصح أبو السعود عن فوائد التقديم التى أشرت إليها بقوله: "ولعل تفريع إرادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب، مع ان مدارها كلا الأمرين للاعتناء بشأنها، إذ هى المحتاجة إلى التأويل، وللإيذان بأن الاقوى فى المدارية هو الأمر الأول، ولذلك لا يبالى بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب فى حقهم أيضاً، ولأن فى التأخير فصلاً بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه إلى الأقرب"(١).

وذهب ابن المنير إلى أن التعبير ليس فيه تقديم؛ لأن السبب فى الإعابة كون السفينة لمساكين فقط، وذكر بعده المسبب، وجاء قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ..﴾ بيانا لمناسبة السبب للمسبب، وليس سببا ثانيا مع الأول، بل هو قيد لإعابة السفينة قصد به بيان مناسبة السبب للمسبب، وعلى هذا فجملة "وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ" فى محل نصب حال بتقدير "قد" من فاعل أردت

(١) تفسير أبى السعود: ٣٩٧/٣.

أن أعيبها[١]. قال ابن المنير: "وكانه جعل السبب فى إعابتها كونها لمساكين؛ ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب بذكر عادة الملك فى غصب السفن، وهذا هو حد الترتيب فى التعليل، أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدما والنية تأخيره والله أعلم"[٢].

وما ذكره ابن المنير هو الأقرب لبناء الكلام على ترتيبه الأصلى ومجيئه بقيد يتوقف إرادة عيب السفينة عليه، وهو خوف الملك الغاصب للسفن السليمة، وقد علق الطيبى على توجيه ابن المنير بقوله "قلت هذا هو الوجه"[٣].

قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الواو عاطفة و"كان" معطوفة على قوله "فكانت لمساكين"، ومشتركة معها فى كونها سببا لإعابة السفينة، وفصل بين المعطوفين بجملة "فأردت ان اعيبها" لما ذكرنا فى فائدة التقديم.

ويجوز أن تكون الواو واو الحال، والجملة حالية بتقدير "قد"، وعلى هذا تكون الجملة تقييداً لإعابة السفينة، وليست سببا مع الأول لإعابتها، وفائدة القيد توضيح المناسبة بين السبب والمسبب. وهذا التوجيه هو الأقرب والأرجح لما ذكرنا، ومما يقوى رجحانه أن جملة "وكان وراءهم ملك" ليس فيها ضمير يعود على المبتدأ السفينة كما هو فى الجملة السابقة "فكانت لمساكين" ، والقول بالعطف يجعلها تأخذ حكم الأولى فى كونها خبراً عن المبتدأ "السفينة"، والجملة الخبرية لا بد فيها من رابط يربطها بالمبتدأ، ولهذا

(١) ينظر: حاشية شيخ زادة، ٣/٣٧٢.
(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف: ٢/٤٩٥، ٤٩٦.
(٣) حاشية الطيبى على الكشاف: ٩/٥٣٤.

رجح الحمل على الحالية لعدم وجود الرابط، ولو كان العطف هو المراد لقيل وكان ورائها ملك.

وأفادت "كان" هنا ما أفادته "فكانت" الاولى من تأكيد نسبة خبر كان إلى اسمها وتمكنه وزيادة تحقيق له.

قوله "وراءهم" ظرف مكان، وهو من الاضداد، حيث يقع بمعنى أمام وبمعنى خلف، والمراد به هنا أمام ، وقد قرأ به ابن عباس وابن جبير[١]، أى أنهم سيقدمون عليه. ويجوز أن يكون بمعنى خلف؛ لأن رجوعهم كان على هذا الغاصب.

قوله: ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ملك اسم كان مؤخر، وخصص هذا الملك من بين الملوك بصفة أخذ السفن السليمة على وجه الغصب، فليس كل الملوك كذلك. وقدم خبر كان" الظرف "وراءهم" على اسمها النكرة الموصوفة "ملك يأخذ" لإفادة التخصيص، أى قصر الملك الموصوف بهذه الصفة على كونه وراءهم. كما أن التقديم أفاد التنبيه من أول الأمر على أن الظرف خبر لا صفة، إذ لو أخر الظرف فقيل: وكان ملك وارءهم ، لتوهم أنه صفة للنكرة، ولتوهم أن جملة "يأخذ" هى الخبر، وليس هذا هو المراد؛ لأن المراد هو الحكم على المسند إليه الموصوف بالمسند المقدم، وإثباته له على وجه الإسناد وليس على وجه الوصفية، ولا شك أن مجيء الخبر "وراء" أدل على الاهتمام به من مجيء الخبر جملة "ياخذ كل سفينة. وإسناد الأخذ إلى الملك مجاز عقلى علاقته السببية، فالملك لا يأخذ فى العادة، وإنما الآخذ هم الأتباع والجنود.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبى: ٤٠٧٣/٦.

قوله: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ "كل" مفعول به للفعل "يأخذ"، وجاءت "كل" مفعولاً به على وجه التأسيس، ولم تأت تأكيداً للمفعول؛ لأن "كل" الواقعة تأسيساً لا تاكيداً إذا أضيفت إلى نكرة شائعة فى الجنس كانت أدل على الإحاطة والاستغراق لجميع أفراد الجنس، وهذا ما جاءت عليه الجملة القرآنية، وإذا كانت تأكيداً لا تأسيساً – وذلك بتأخيرها – فلا بد من كون المؤكد معرفاً بأل الجنسية حتى تضاف "كل" إلى ضميره ويتحقق معنى الإحاطة بأفراد المؤكد. قال السهيلى: "إن كلاً إذا تقدمت تقتضى الإحاطة بالجنس، وإذا تأخرت – وكانت توكيداً – اقتضت الإحاطة بالمؤكد خاصة جنسا شائعاً كان أو معهوداً معروفاً"(١).

و"سفينة" موصوف حذفت صفته، والتقدير: صالحة، "والدليل على أن الصفة محذوفة قراءة ابن عباس وابن جبير "كل سفينة صالحة""(٢)، ومما يدل على الحذف أيضاً قوله: "فأردت أن أعيبها"، لأنه لو لم يقدر المحذوف لم يكن للتعييب فائدة(٣).

وفائدة الإيجاز بحذف الصفة الإشارة إلى أهمية هذه الصفة بالنسبة للسفينة، فإذا كانت السفينة غير صالحة لا تعد سفينة، فلا يأخذها الغاصب، وهو لا يأخذ إلا السفينة الخالية من العيوب، قال الزركشي فى فوائد حذف الصفة" وأكثر ما يرد للتفخيم والتعظيم فى النكرات، وكأن التنكير حينئذ علم عليه"(٤).

(١) نتائج الفكر: /٢٧٨.
(٢) تفسير القرطبى: ٤٠٧٣/٦.
(٣) ينظر الإيضاح: ١٨٦/١، ١٨٧،
(٤) البرهان: ١٥٥/٣.

قوله تعالى: ﴿غَصْبًا﴾ حال من فاعل يأخذ، وأفادت الحال بيان هيئة الملك عند اخذ السفن، فهو آخذ على وجه الغصب والظلم وليس على وجه الرضا والعدل، وجاء الحال مصدراً على خلاف الأصل، لأن الأصل فى الحال أن تكون مشتقة، وفى هذا مبالغة فى تحقق الغصب من هذا الملك، فهو لم يفعل ذلك على هيئة الغصب، بل فعله كأنه عين الغصب ، وهذا المعنى لا يتحقق لو قيل غاصباً. ويجوز ان يعرب "غصباً" مفعولاً مطلقاً مبينا لنوع الاخذ، وكان فى الأصل صفة للمصدر أخذا، فلما حذف الموصوف أعرب إعرابه..

* * *

تأويل حادثة قتل الغلام

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[١].

أول العبد الصالح حادثة قتل الغلام بغير حق بأن الله سبحانه وتعالى اعلمه بأن هذا الغلام سيصير كافراً، فخاف العبد أن يغشى هذا الغلام أبويه المؤمنين طغيانا عليهما وكفراً لنعمتهما بعقوقه وسوء خلقه، فيلحق بهما الشر والبلاء، أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله، فيرتدا بسببه، ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان، فقتله الخضر خوفاً على أبويه منه، ورغبة فى ان يرزقهما ربهما خيراً منه دينا وصلاحاً ورحمة بأبويه، وقد تحقق ذلك، فقد "روى انه ولدت لهما جارية تزوجها نبى، فولدت نبيا هدى الله على يديه أمة من الامم"[٢].

ومن الدروس المستفادة من تأويل هذه الحادثة"تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعاً من الأكباد، ومن سلّم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء.. فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب"[٣].

تأويل هذه الحادثة معطوف على تاويل الحادثة الاولى؛ لأن بينهما التوسط بين الكمالين، والقول فى "أما" وفى "فكان" كالقول فى الحادثة الأولى.

و"أبواه تثنية أب، والمراد به الأب والأم على طريقة تغليب المذكر على المؤنث، وفائدة التغليب الإشعار بان خوف الطغيان والكفر على الأبوين من هذا الغلام فى جانب الأم على الدرجة نفسها فى جانب الأب،

(١) سورة الكهف:/٨٠، ٨١.
(٢) الكشاف: ٢/٤٩٩.
(٣) تفسير القرطبى: ٦/٤٠٧٧.

فالأم من طبيعتها اللين والحنان والضعف، وهذا ما يجعلها أكثر تاثيراً بفعل هذا الغلام، بخلاف الأب، فإن من طبعه القوة والشدة، وهذا ما يجعل أبناءه يحذرونه، ومع هذه القوة والشدة يخاف عليه من هذا الغلام؛ فعبر عن الأب والام بالابوين على التغليب للإشعار بأن الام بلغت مبلغ الأب فى القوة والشدة، ومع هذا يخشى عليهما من هذا الغلام الذي سيصير كافراً.

والمتأمل فى حديث القرآن الكريم عن الأب والأم يجد أنه جاء بتغليب الأب على الأم كما فى هذه الآية التى معنا، وجاء بتغليب الام على الأب فى جانب المادة المعجمية للكلمة، وتغليب الأب على الأم ثانيا فى جانب هيئة الكلمة وصيغتها كما فى التعبير بالوالدين عن الأب والام، فالولادة من وظائف الام دون الأب، فغلبت الام على الأب من جهة مادة الكلمة وأصل معناها، ثم جاء تغليب المذكر على المؤنث بتثنية المذكر دون المؤنث، فعبر عنهما بالوالدين دون الوالدتين. فالتعبير بالأبوين عن الأب والام فيه تغليب للأب على الام، والتعبير بالوالدين عنهما فيه تغليبان: الأول تغليب الأم التى ولدت على الأب، والثانى تغليب المذكر على المؤنث فى التثنية، لأن المذكر لا تذكر معه علامة التانيث، فهو أخف من المؤنث الذي يعرف بعلامة التانيث، ولكل مقامه الخاص به، ففى مقام الحث على بر الأب والأم يعبر عنهما بالوالدين، أى الذين أنجبا الولد، لأن الأم تتحمل ألوانا من التعب وصنوفا من الأوجاع والآلام والمشاق، وهذا مما يرجح جانب البر بالأم ويجعلها أولى من الأب، فعن طريق التغليب ألحق الأب بالأم فى الحث على برهما، فالأب تبع للأم التى تحملت الكثير فى حمله وولادته وإرضاعه وتربيته، فقال سبحانه ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..﴾[1]،ولم يقل بالأبوين ؛ لأن بر الوالدين واجب ، فهما سبب الوجود

(١) سورة النساء: /٣٦.

للولد بعد الله سبحانه ، وهذا وحده داع لبرهما بدون النظر إلى إيمانهما أو كفرهما أو سوء التربية أو حسنها.

وفى مقام النسب وتعهد المولود بالتربية والرعاية وإصلاح أمره ، وفى مقام تحديد النصيب فى الميراث يعبر عنهما بالأبوين كما فى هذه الآية التى معنا، وكما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ..** ﴾(١).، فالأب أصل فى هذه المقامات نظراً لقوته وشدته، والأم فرع ألحقت بالأب نظراً لضعفها ولينها وشدة عاطفتها.

روى أن المأمون بن الرشيد لما طلب الخلافة عابه هشام بن على؛ فقال بلغنى أنك تريد الخلافة، وكيف تصلح لها وأنت ابن أمة؟ فقال كان إسماعيل ابن أمة وإسحاق عليهما السلام ابن حرة، فأخرج الله تعالى من صلب إسماعيل خير ولد آدم، وأنشد:

لا تزرين بفتى من أن تكـون له ... أم من الروم أو سوداء عجماء

فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللأباء أبناء(٢)

وجاء التعبير القرآنى بالإخبار عن الغلام بإيمان أبويه، ولم يخبر عنه بالكفر مع انه السبب فى القتل الذى أنكره موسى عليه السلام لدلالة التنصيص على إيمان أبويه على انه ليس مؤمناً، وأيضاً ذكر الخشية على الأبوين منه دليل على أنه ليس مؤمنا، فترك ذكر كفر الغلام "لأنه إذا كان للشيء صفة يغنى ذكرها عن ذكر صفة أخرى تدل عليها كان الاقتصار عليها اولى من ذكرها؛ لأن ذكرها كالتكرار، وهو ممل"(٣).

---

(١) سورة النساء: /١١.
(٢) حاشية شيخ زادة: ٥٤٣/١.
(٣) البرهان: ٤٠٣/٣.

قوله: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ الفاء تعليلية، فكفر الغلام وإيمان أبويه سبب فى الخوف منه على الأبوين، "فالخشية خوف يشوبه تعظيم واكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه"(١)، والمراد بـ "نا" فى قوله "فخشينا" الخضر، وعبر عنه بضمير الجماعة ، لإظهار أنه مشارك لغيره فى الفعل، وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاظم، لأن المقام مقام الإعلام بأن الله أطلعه على ذلك وأمره ، فناسبه التواضع"(٢).

قوله "يُرْهِقَهُمَا"، معناه يغشاهما، مأخوذ من أرهقه الأمر إذا غشيه بقهر(٣)، ولهذا عبر بالرهق لما فيه من الدلالة على القهر والغلبة والتذليل.

قوله﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ الطغيان هو "مجاوزة الحد فى المكروه مع غلبة وقهر"(٤)، والكفر هو "جحود الوحدانية او النبوة او الشريعة او ثلاثتها، والكفران فى جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر فى الدين أكثر"(٥). فالكفر غير الطغيان، ولهذا عطف عليه، لأن الشيء لا يعطف على نفسه، وفى الجمع بينهما زيادة فى تفظيع ما سيحدث للأبوين من هذا الغلام، وبدأ بالطغيان للترقى من الأدنى إلى الأعلى، فالبداية حصول المكروه فى شخصهما والنهاية حصول المكروه فى العقيدة.

قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، "أردنا" معطوف على "فخشينا" وعبر عن نفسه بضمير الجماعة لإظهار التواضع بجعل نفسه مشاركاً لغيره فى الفعل كما سبق فى "فخشينا".

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /١٤٩.
(٢) التحرير والتنوير: م/ ٨، جـ /١٢/١٦.
(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم:/٢١٠.
(٤) الفروق اللغوية/ ١٩٠.
(٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم:/٤١٥.

قوله ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا..﴾ الإبدال والتبديل جعل الشيء مكان آخر"[١]، وقد دل التعبير بالإبدال على قتل الغلام ورزق الأبوين بغلام آخر مكانه، فطوى القتل ولم يصرح به لدلالة الإبدال عليه، ولأن القتل أمر تبغضه النفس، وتحرمه الشريعة، فعدم التصريح به إشارة إلى أنه ينبغى ألا يوجد بين الناس.

قوله: ﴿رَبُّهُمَا﴾ "الرب" مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرب مطلقاً إلاّ لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، وبالإضافة يقال له ولغيره"[٢]، ولفظ الرب يقتضى معنى التربية والملك والقدرة على تدبير الملك وتصريفه، والتعبير به هنا مع إضافته إلى ضمير الأبوين فيه إشارة إلى أن مالك امرهما يريد لهما الأصلح والأنفع فى الدنيا والآخرة، قال أبو السعود: "فى التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما"[٣].

قوله ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً..﴾ "خيراً" مفعول ثان لـ "ليبدلهما، وهو أفعل تفضيل مخفف اخير، وذكر أبو حيان أن التفضيل هنا ليس مراداً؛ لأن الاشتراك غير محقق فى هذا الغلام، وذلك فى قوله: "وأفعل هنا ليست للتفضيل؛ لأن ذلك الغلام لا زكاة فيه ولا رحمة"[٤].

والوجه ان أفعل هنا للتفضيل كما ذهب الشهاب الخفاجى؛ لأن التفضيل يكفى فيه الاشتراك التقديرى، وذلك فى قوله: "قيل أفعل فيه ليس للتفضيل؛ لأنه لا زكاة فيه ولا رحمة، وَرُدَّ لأنه كان زكيا طاهراً من الذنوب إن كان صغيراً، وبحسب الظاهر إن كان بالغاً؛ فلذا قال موسى صلى الله

(١) السابق: /٣٦.
(٢) السابق: /١٨٨ بتصرف.
(٣) تفسير أبى السعود: ٣٩٧/٣.
(٤) تفسير أبى حيان: ١٤٧/٦.

عليه وسلم "نفسا زكية"، وهذا فى مقابلته، فخير منه زكاة من زكى فى الحال والمآل بحسب الظاهر والباطن، وسلم فالاشتراك التقديرى يكفى فى صحة التفضيل"[١].

و"زكاة" طهارة من الذنوب، وهى تمييز نسبة، والتمييز يبين ما أبهم، ويوضح ما أجمل، وفى ذلك تمكين وتقرير للمعنى فى النفس، قال الألوسى "ولا يخفى ما فى الإبهام أولا ثم البيان ثانياً من اللطف، ولهذا لم يقل: فأردنا أن يبدلهما ربهما أزكى منه وأرحم، على أن فى خير زكاة من المدح ما ليس فى أزكى، كما يظهر بالتأمل الصادق"[٢]. وإنما كان "خيرا منه زكاة أقوى وأبلغ فى المدح من ازكى؛ لأنه أدل وأبين على المبالغة فى الزكاة والرحم، فالتفضيل ليس فى الزكاة والرحم، بل فى خيرية الزكاة وقرب الرحم، وذلك بوصف الزكاة بالخيرية والرحم بالقرب، وهذا مما يزيد فى تقرير المعنى وتأكيده.

قوله "وَأَقْرَبَ رُحْمًا" معطوف على "خيراً منه" وحذف منه لدلالة ما قبله عليه، و"رحما" مصدر منصوب على التمييز مثل "زكاة" والمراد به الرحمة، أى أقرب رحمة عليهما وبراً بهما.

* * *

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى: ١٢٩/٦.
(٢) روح المعانى: م ٩ ، جـ ١٧/١٦/.

تأويل حادثة إقامة الجدار

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

كشف الخضر عن السر فى إقامة الجدار لأهل القرية اللئام بدون أن يأخذ منهم أجراً مع أنهم فى أشد الحاجة إلى الأجر، فهو عمل فى ظاهره خير لأهل قرية لا يستحقون أن يصنع فيهم خير، فأجاب عن وجه الحكمة فى هذا العمل بأنه تكريم للغلامين اليتيمين، وليس تكريماً لأهل القرية، فهذا الجدار الذى أقامه بعد أن قارب على السقوط يوجد تحته كنز ملك لغلامين يتيمين، وهما ابنان لرجل صالح تقى، فأقام الجدار ليبقى الكنز محفوظاً تحت الجدار حتى يشب الغلامان ويبلغا سن الرشد، فتكون عندهما القدرة على حفظ كنزهما من أهل القرية اللئام، فلو سقط الجدار والغلامان صغيران لانكبّ على الكنز هؤلاء اللئام، وأخذوه ظلماً وعدوانا، فبناء الجدار فى ظاهره خير لأهل القرية، ولكن فى باطنه شر لهم، لأنه حال بينهم وبين اغتصاب الكنز، والعبد الصالح الخضر أقام الجدار لأن أصحابه يتيمان ضعيفان، ولأن تحته كنز يخص اليتيمين، ولأن أباهما كان رجلاً صالحاً، وفى ذلك إشارة إلى ان صلاحية الآباء تنفع الأبناء، وقد روى عن أحد الصالحين أنه قال لابنه: لأزيدن فى صلاحى من أجلك رجاء أن احفظ فيك، "فالله سبحانه يحفظ الصالح فى نفسه وفى ولده وإن بعدوا عنه، وقد

(١) سورة الكهف: /٨٢.

روى أن الله تعالى يحفظ الصالح فى سبعة من ذريته، وعلى هذا يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[١].[٢]

القول فى "﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ﴾ كالقول فيما سبق فى خرق السفينة وقتل الغلام ، قوله:﴿لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ عبر عن الغلامين بالنكرة الموصوفة، ولم يعبر عنهما باسمهما العلم، لأن ذكرهما بالعلم لا يتعلق به الغرض، بل الغرض يتعلق بذكر صفتهما، لأن صفتهما كانت سببا من أسباب بناء الجدار؛ ولهذا لا نقف مع كلام المفسرين عن تعيين اسمهما.

ووصف الغلامان بكونهما "يتيمين" بما تحمله كلمة اليتيم من ضعف ومذلة واستسلام، وحاجتهم إلى الحنو والحفاظ على حقوقهم، وبما توجبه كلمة اليتيم على ذوى المروءة والتقوى من المسارعة إلى الدفاع عنهم والوقوف بجانبهم، ووصفا أيضاً بكونهما مستقرين "فى المدينة" التى فيها الجدار ، فهما معروفان عند أهل القرية اللئام؛ لأنهم يسكنون هذه المدينة معهم، وهذا أدعى بأن يأكلوا مال اليتيمين، لأنهم لا يخشون مقاومة، ومن أين تأتى المقاومة وهم يعرفون قلة حيلة اليتيمين؟.

وقد جاء التعبير القرآنى بذكر الغلامين موصوفين باليتم. ولم يأت التعبير عنهما باليتيمين مباشرة، فلم يقل فكان ليتيمين، لأن المقصود الإشارة إلى انهما ذكران وليسا بنتين، فالذكر يتمه مؤقت وليس دائما، فصفة اليتم تزول عنه حين يبلغ الرشد، وحينئذ تكون عنده القدرة على الدفاع عن نفسه وماله، أما الأنثى فصفة اليتيم لازمة لها نظراً لضعفها، قال ابن منظور:

---

(١) سورة الاعراف: /١٩٦.
(٢) تفسير القرطبى: ٤٠٧٨/٦.

"وقال أبوسعيد: يقال للمرأة يتيمة لا يزول عنها اسم اليتيم أبداً؛ وأنشدوا:

وينكح الأرامِلّ اليتامىَ

وقال ابو عبيدة: تدعى يتيمة ما لم تتزوج، فإذا تزوجت زال عنها اسم اليتيم، وكان المفضل ينشد:

أفاطم إنى مالك فتثبتى ولا تجزعى كل النساء يتيم.(١)

وبالتأمل فى حديث القرآن عن اليتيم نجد أنه استغنى بالصفة عن الموصوف، حيث غلبت على الموصوف وقامت مقامه، فجاء التعبير فى القرآن باليتيم مباشرة بدون ذكر الموصوف ليشمل الذكر والأنثى، ولم يخرج عن هذا إلا الغلامان اليتيمان صاحبا الكنز، لأنه قصد الإشارة إلى أنهما ذكران متصفان باليتم إلى مدة محددة معروفة، وبعد بلوغهما هذه المدة تزول عنهما صفة اليتم، فيصبحان أقوياء عندهم القدرة على الدفاع عن كنزهما، ولم يعبر باليتيمين مباشرة لدفع توهم كونهما انثيين، وعبر عنهما بالمثنى المذكر على التغليب، والانثى يتمها مستمر لا يزول لضعفها، فدفعاً لهذا التوهم ذكر الموصوف المذكر فقال "لغلامين يتيمين".

قوله ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ المدينة هى القرية نفسها التى سبق ذكرها فى قوله: "أهل قرية"، وعبر عنها هنا بالمدينة تكريماً لليتيمين وأبيهما الصالح، وتنويها بشأنهم، فالمكان يعظم بعظم من نسب إليه، ويحقر بحقارة من نسب إليه، فعبر بالقرية عند ذكر أهل القرية اللئام، وعبر بالمدينة عند ذكر اليتيمين وأبيهما الصالح. قال أبو السعود: المدينة "هى القرية المذكورة فيما سبق، ولعل التعبير عنها بالمدينة لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح"(٢).

---

(١) لسان العرب: مادة /يتم.
(٢) تفسير أبى السعود: ٣٩٧/٣.

وإنما كان فى التعبير بالقرية تحقير لأهلها اللئام؛ لأن القرية ماخوذة من "قرى الشيء يقريه قريا إذا جمعه، وفى حديث هاجر عليها السلام حين فجر الله لها زمزم: "فقرت فى سقاء أو شنة كانت معها"[١]، فهؤلاء اللئام لا هم لهم إلاّ جمع المال والحرص على اقتنائه وعدم اخراج شيء منه، ومن كان شديد الحرص على الجمع كان شديد البخل. قال البقاعى: "عبر عنها هنا بالقرية دون المدينة لأنه أدل على الذم، لأن مادة "قرا" تدور على الجمع الذى يلزمه الإمساك"[٢]. وقال : "ولما كانت القرية لا تنافى التسمية بالمدينة وكان التعبير بالقرية أولاً أليق، لأنها مشتقة من معنى الجمع، فكان أليق بالذم فى ترك الضيافة لإشعاره ببخلهم حالة الاجتماع وبمحبتهم للجمع والإمساك"[٣].

وكان فى التعبير بالمدينة تعظيم للمكان بعظمة ساكنيه، لأن المدينة مأخوذة من "مدن بالمكان أقام به" فهى تدل على الإقامة والعمران والرقى فى الحضارة، وكفاها تعظيما وتفخيما ان سميت بها مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قطعت عن الإضافة وعرفت بأل.

قوله:﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾الجملة معطوفة على التى قبلها، فاشتركت معها فى كونها خبراً عن الجدار، وقدم الخبر "تحته" على اسم كان "كنز لهما" لإفادة التخصيص، أى قصر الكنز على كونه تحت الجدار، وأفاد التقديم أيضاً التنبيه من أول الامر على أن الظرف خبر لا صفة، إذ لو أخر الظرف فقيل وكان كنز تحته لهما لتوهم انه صفة للنكرة، وان الخبر

(١) لسان العرب: مادة "قرى".
(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور: ١١٣/١٢، ١١٤.
(٣) السابق: ١٢٢/١٢.

الجار والمجرور "لهما، وهذا ليس مراداً؛ لأن المراد الإخبار عن الكنز بانه تحت الجدار، وليس المراد الإخبار عن الكنز بانه للغلامين.

والكنز هو "جعل المال بعضه على بعض وحفظه"(١). واختلف فى المراد به هنا "فقال عكرمة وقتادة كان مالا جسيما، وهو الظاهر من اسم الكنز، إذ هو فى اللغة المال المجموع، وقال ابن عباس كان علما فى صحف مدفونة، وعنه أيضاً كان لوحاً من ذهب مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله"(٢).

والمعروف أن كنز المال منهى عنه فى الإسلام، وقد توعد الله الكانزين بالعذاب الأليم فى قوله تعالى: ﴿ . . وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣)، فكيف كان للغلامين كنز ورثاه عن أبيهما الصالح؟ أجيب عن ذلك بأن "الذم عليهما لمن لا يؤدى زكاتهما وسائر حقوقهما"(٤)، أو أن الكنز حلال للأمم السابقة حرام على أمة الإسلام، قال الزمخشرى: "وعن قتادة" احل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا، وحرمت الغنيمة عليهم واحلت لنا"(٥).

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: /٤٦٠.
(٢) تفسير القرطبى: ٤٠٧٧/٦.
(٣) سورة التوبة:/٣٤.
(٤) تفسير أبى السعود: ٣٩٧/٣.
(٥) الكشاف: ٤٩٦/٢.

قوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ الواو واو الحال، والجملة فى محل نصب حال بتقدير قد من الضمير فى "لهما". وجاء التعبير بإفراد "أبو" ولم يات بالتثنية كما سبق فى قوله "وكان أبواه" لأن الغلامين هنا يتيمان، واليتيم: هو من فقد أباه وهو صغير، فذكر الأم على طريق التغليب ليس مراداً هنا، لأن من ماتت أمه لا يكون يتيما، فلكون اليتيم لا يكون إلا بموت الأب، جيء به مفرد حتى لا يفهم منه أن اليتيم لا يتحقق إلا بفقد الأب والأم، وليس فى التركيب ما يمنع كون الام صالحة أيضاً، ولكن لم تذكر مع الأب، لأن المقام مقام تحديد الصفة التى يكون بها اليتيم، والمراد بالأب هنا الأب الأقرب، ويعضد هذا وصف الغلامين باليتم. "وقيل هو الأب السابع، قاله جعفر بن محمد، وقيل العاشر"(١). فالسبب فى إقامة الجدار هو حفظ الكنز الذى تحته لليتيمين تكريما لهما لصلاح أبيهما.

قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا . . ﴾ الفاء تعليلية، وفى إسناد الإرادة إلى الرب، والإضافة إلى الضمير العائد على سيدنا موسى "ربك" دون الإضافة إلى ضمير اليتيمين، فلم يقل ربهما، "تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور"(٢).

ولعل فى الإضافة إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضمير اليتيمين تذكيراً له بحفظ الله له من طغيان فرعون، فنجاه ربه مما كان يفعله فرعون بأمثاله من أبناء بنى اسرائيل، بعد ان أوحى الله إلى أمه أن تضعه فى التابوت، وتقذف التابوت فى اليم، فيأخذه العدو المتربص به، ويربيه بعد

(١) تفسير القرطبى: ٤٠٧٦/٦.
(٢) تفسير أبى السعود: ٣٩٨/٣.

أن ألقى الله المحبة له فى قلب كل من يراه، وصدق الله العظيم إذ خاطبه بقوله ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[١].

والأشد "مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة... وواحدة الأشد شدة ، قال : والشدة القوة والجلادة، والشديد الرجل القوى"[٢]، فالمراد به هنا كمال القوة، وهى المرحلة التى يستطيع فيها اليتيم الدفاع عن ماله والحفاظ عليه، فإذا بلغ اليتيم هذه المرحلة – وقد نص عليها القرآن الكريم –دفعت إليه أمواله؛ لأنه صار قادراً على الحفاظ عليها، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . .﴾ [٣].

قوله: " وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا " جاء التعبير بصيغة الاستفعال للمبالغة فى الإخراج؛ كانهما يطلبان من انفسهما الزيادة فى الإخراج والثبات عليه، وحصول الشيء بعد طلبه يكون أبلغ. وبالتأمل فى صيغة الاستخراج فى القرآن الكريم وجد أنها جاءت فى الاعمال التى تحتاج إلى زيادة الطلب والبحث عن الأشياء الخفية، كما فى قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . .﴾[٤]، وقوله تعالى:﴿ . . ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ . .﴾[٥].

قوله :كَنزَهُمَا: عرف الكنز بالإضافة، ولم يعرف بأل العهدية، فلم يقل الكنز، لزيادة التنصيص على اختصاص الكنز بهما وامتلاكهما له.

---

(١) سورة طه:/٤١.
(٢) لسان العرب: مادة "شدد".
(٣) سورة الانعام: /١٥٢، وسورة الإسراء/٤١.
(٤) سورة فاطر:/١٢.
(٥) سورة يوسف:/٧٦.

والمتأمل فى هذه الافعال الواردة فى التأويل والتى فعلها الخضر يجد أنه أسند فعلين منها إلى نفسه؛ فعلاً فى تاويل خرق السفينة، وبذلك فى قوله "فأردت ان اعيبها، وفعلا فى تاويل قتل الغلام وذلك فى قوله ﴿**فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا. فأردنا..**﴾. وأسند فعلين إلى الله عز وجل. الأول فى قوله سبحانه فى تأويل قتل الغلام ﴿**فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة..**﴾، والثانى فى قوله سبحانه فى تأويل بناء الجدار "فأراد ربك أن يبلغا أشدهما..". فلم خولف فى إسناد هذه الأفعال، مع أن جميع الأفعال التى قام بها الخضر من عند الله سبحانه وبتكليف منه؟ والجواب: أن إرادة بلوغ اليتيمن أشدهما واستخراج كنزهما.أسندت إلى الله عز وجل لأنها خير محض، فهى منفعة وإحسان ورحمة باليتيمين، وكذلك أسند التبديل إلى الله سبحانه وتعالى لأن فيه خيراً للأبوين، أما إرادة إعابة السفينة فقد أسندها إلى نفسه تادباً فى الخطاب عن الله سبحانه، لأن هذا الفعل ظاهرة شر ، ومثل هذه الافعال التى فيها ضرر وعقاب ومشقة وإيلام لا تسند إلى الله سبحانه على لسان عباده المؤمنين، فلا يسند إلى الله سبحانه إلاّ أفعال البر والخير والرحمة والإحسان رعاية للادب، مع أن جميع الأفعال خيرها وشرها من عند الله.

وأسند فعل القتل، وهو "فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا. فأردا أن يبدلهما ربهما.."إلى نفسه المعبر عنها بضمير جماعة المتكلمين لإظهار التواضع، بجعل نفسه مشاركا لغيره فى الفعل، أو للاشارة إلى أنه من العظماء فى علوم الحكمة. قال الفخر الرازى كاشفاً عن السر فى اختلاف الإسناد: "كيف اختلفت الإضافة فى هذه الإيرادات الثلاث،وهى كلها فى قصة واحدة وفعل واحد؟. والجواب: انه لما ذكر العيب أضافه إلى نفسه

فقال: "فأردت ان أعيبها" ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء فى علوم الحكمة، فلم يقدم على هذا الفعل إلاّ لحكمة عالية، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما إضافه إلى الله تعالى، لأن المتكفل بمصالح الأبناء ولرعاية حق الآباء ليس إلاّ الله تعالى"[١].

والتأدب فى الخطاب بإسناد افعال الخير إلى الله سبحانه، وعدم إسناد الافعال التى فيها شر وضرر وعقاب وألم إليه سبحانه خاصية من خصائص أسلوب القرآن الكريم، تعلمنا كيف يكون خطاب المؤمنين مع ربهم، تأمل إسناد "الإنعام إلى الله سبحانه وعدم إسناد الغضب إليه فى قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّين﴾[٢].

قال العلامة أبو السعود: "والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جري على منهج الآداب التنزيلية فى نسبة النعم والخيرات إليه عز وجل دون أضدادها، كما فى قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[٤]"[٥].

فلم يسند الغضب والمرض وإرادة الشر إلى الله سبحانه تأدباً فى الخطاب، وأسندت الافعال الأخرى إليه سبحانه لأنها إنعام وخير.

---

(١) تفسير الفخر الرازى: ١٦٣/٢١.
(٢) سورة الفاتحة: /٧.
(٣) سورة الشعراء:/٧٨-٨٠.
(٤) سورة الجن:/١٠.
(٥) تفسير أبى السعود: ٢٢/١.

ولا يعترض على هذه الخاصية بأن القرآن الكريم جاء فيه إسناد الشر والعقاب إلى الله سبحانه؛ لأن إسنادها إلى الله سبحانه فيما جاءت فيه لم يكن حكاية عن حديث المؤمنين ، وإنما كان إخباراً من الله سبحانه عن نفسه، "ولله تعالى ان يطلق على نفسه ما يشاء، ولا نطلق نحن إلاّ ما أذن لنا فيه من الأوصاف والأفعال الشريفة، جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيراً"(١).

واختلف فى إعراب ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فقيل إنه مفعول لأجله للفعل أراد فى قوله "فأراد ربك"، وكان مقتضى الظاهر ان يعبر بالضمير على هذا الإعراب فى قوله "من ربك" فيقال رحمة منه، ولكن عدل عن مقتضى الظاهر فعبر بالاسم الظاهر مكان الضمير لما فى ذكر الرب من الدلالة على الرعاية والحفظ.

وقيل إنه منصوب على الحالية من الفاعل فى "ويستخرجا كنزهما" على تاويل المصدر بالمشتق، أى مرحومين، والتعبير بالمصدر أفاد المبالغة فى تحقق الرحمة لهما. وقيل إنه مفعول مطلق؛ لأن أراد بمعنى رحم.

وقيل إنه مفعول له متعلق بمحذوف، والمعنى فعلت ما فعلت إرادة أو رجاء رحمة ربك، وهذا الوجه هو الأقوى، قال أبو السعود: "مصدر فى موقع الحال أى مرحومين منه عز وجل، أو مفعول له، او مصدر مؤكد لـ "أراد"؛ فإن إرادة الخير رحمة، وقيل متعلق بمضر؛ أى فعلت ما فعلت من الأمور التى شاهدتها رحمة من ربك، ويعضده إضافة الرب إلى ضمير المخاطب دون ضميرها"(٢).

---

(١) تفسير القرطبي: ٤٠٧٩/٦.
(٢) تفسير أبى السعود: ٣٩٨/٣.

وفى وصف "رحمة" بكونها من الرب سبحانه تفخيم لأمرها وتعظيم لشأنها.

قوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يجوز أن يكون تاكيداً للكلام المحذوف على تقدير :فعلت ما فعلت إرادة ورجاء رحمة ربك، وجاءت الواو بين التأكيد والمؤكد – عدولاً عن الأصل فى ترك الواو بينهما – للإشارة إلى تميز الجملة الثانية فى ذاتها واستقلالها عما قبلها، وكأنها شيء مغاير لما قبلها، فهى مستحقة لأن تذكر مستقلة لا تابعاً لما قبلها، وإنما كان الإتيان بالواو بين التاكيد والمؤكد يفيد هذا المعنى؛ لأن الواو تقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، فالإتيان بها بين جملتين متصلتين يوهم أنهما مستقلتان.

ويجوز أن تكون الواو استئنافية، وذلك على إعراب "رحمة" حالاً او مفعولاً له من "فأراد ربك".

والمراد بقوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ ما فعلته عن اجتهادى ورأيى، وإنما صرح الخضر بنفى أن يكون ما فعله عن اجتهاده ورأيه، ولم يصرح بإثبات الفعل لله سبحانه، فلم يقل: فعلته عن أمر الله، لأنه لو قال هذا لم يكن فيه دلالة قطعية على نفى كون الفعل عن اجتهاده وامره، بل يجوز أن يكون فعله عن أمر الله سبحانه وعن اجتهاده، أما ما جاءت عليه الجملة القرآنية بالتنصيص على نفى الفعل عن اجتهاده فإنه يدل بطريق الكناية واللزوم على أن ما فعله عن امر الله سبحانه؛ لأن الفعل إذا نفى تعلقه بسبب يلزم منه تعلقه بسبب آخر، وليس هذا السبب إلا كونه عن الله عز وجل، والإثبات بطريق الكناية آكد وأقوى؛ لأنه إثبات بالحجة والبرهان.

وقال الطاهر بن عاشور إن السر فى التصريح بنفى الفعل عن اجتهاده دون التصريح بإثبات أن الفعل عن امر الله هو زيادة إظهار لحيرة موسى وإنكاره، وذلك فى قوله: "وإنما أؤثر نفى كون فعله عن أمر نفسه على أن يقول: وفعلته عن أمر ربى، تكملة لكشف حيرة موسى وإنكاره؛ لأنه لما أنكر عليه فعلاته الثلاث كان يؤيد إنكاره بما يقتضى أنه تصرف عن خطأ"(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ الإشارة بـ "ذلك" إلى العواقب المذكورة فى الكلام السابق، وهى امور معنوية، وعبر عنها باسم الإشارة لإبرازها فى صورة المحسوس المشاهد، وفى هذا تقرير للخبر، واسم الإشارة للبعيد "ذلك" أفاد تعظيم المشار اليه وتفخيمه تنزيلاً لبعد درجته وعلو مرتبته منزلة بعد المسافة.

وجاءت صلة الموصول "ما" بنفى استطاعة سيدنا موسى الصبر، وقد سبق ذكرها فى بداية وعده بتأويل الاحداث فى قوله "سانبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا" وفائدة إعادتها "تكرير للنكير وتشديد للعتاب"(٢).

قوله "لم تسطع" بحذف التاء تخفيفاً، وقال فى الوعد بالتأويل "لم تستطع" بذكر التاء؛ لأن هذه الافعال قبل تاويلها خفية صعبة على النفس، فناسب هذا الخفاء ذكر الفعل بتاء الافتعال، وبعد التاويل أصبحت واضحة سهلة على النفس، فناسب ذلك حذف التاء تخفيفاً، فذكر الفعل بتاء الافتعال له مقامه، وذكره بدون التاء له مقامه، قال البقاعى: "وحذف تاء الاستطاعة

(١) التحرير والتنوير: م/ ٨ جـ/١٥/١٦
(٢) تفسير أبى السعود: ٣٩٨/٣.

هنا لصيرورة ذلك – بعد كشف الغطاء – فى حيز ما يحمل، فكان منكره غير صابر أصلاً لو كان عنده مكشوفا من أول الأمر"[١].

تبين لنا من خلال عرض هذه الحوادث وتأويلها أن الامر كله بيد الله سبحانه، وعلى المؤمن الرضا بما اختاره الله سبحانه وقدره، فما قدره الله واختاره هو الخير كله، قال سبحانه : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون﴾[٢].

وعلى الإنسان أن يتريث فى الحكم على الاحداث، فلا يحكم على الأشياء بما يبدو من ظاهرها، فما يراه شراً قد يكون خيراً، وما يراه خيراًقد يكون شراً ، وصدق الله العظيم إذ قال : ﴿ . . وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾[٣].

جعلنا الله سبحانه ممن يرضون بقضائه، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور: ١٢٣/١٢.
(٢) سورة القصص: /٦٨.
(٣) سورة البقرة: /٢١٦.

الخاتمة

الحمد لله الذى بيده العون والتوفيق، ومنه الهداية لأقوم طريق، والصلاة والسلام على أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء وخاتم الأنبياء، سيدنا محمد النبى الأمى الكريم.

وبعد،

فبعد هذه الدراسة التى حاولت فيها الكشف عن بعض أسرار البلاغة القرآنية فى قصة سيدنا موسى مع الخضر تبين لى بعض النتائج، أذكر منها:

١- أن هذه القصة بأحداثها من القصص التى لم تتكرر فى القرآن الكريم، حيث ذكرت جملة واحدة فى سورة الكهف، ولعل السر فى عدم تكرارها أن القصة فيها أحداث عجيبة غريبة، وهذا مما يزيد فى تعلق النفوس بها، والرغبة فى معرفة الحكمة فى حدوث هذه الأفعال، وهذا يكفى لتثبيتها فى النفوس وتمكينها فى القلوب.

٢- أن سورة الكهف ذكر فيها ثلاث قصص، وهى قصة أصحاب الكهف وقصة موسى مع الخضر وقصة ذى القرنين، والقصص الثلاث لم يتكرر ذكرها ، وتتسم باشتمالها على أمور غيبية وأحداث عجيبة خفية كخفاء من بالكهف.

٣- انتهجت هذه القصة أسلوب الحوار بين طالب العلم والعالم، وأسلوب الحوار من اقوى الأساليب فى الإقناع والتأثير، فهو يجذب انتباه السامع أو القارئ، ويجعله يشارك المتحاورين فى حديثهما.

٤- أهمية الدراسة البلاغية التحليلية فى الكشف عن سمات التراكيب، وفى إظهار الفروق الدقيقة بينها.

٥- ظهر من خلال هذه الدراسة دور اللفظة فى تحقيق المزية فى الكلام، فجاء كل لفظ فى موضعه الأخص الأشكل به، بحيث لا يصلح مكانه لفظ آخر من الألفاظ التى تشترك معه فى أصل المعنى.

٦- كثرت فى هذه القصة جملة "قال" وجاء معظمها على الاستئناف البيانى، وهو من أقوى الأساليب وأبلغها؛ لأنه يحتاج إلى إعمال فكر وزيادة تدقيق لإدراك وجه ارتباط الجمل ببعضها، وكفى هذا الأسلوب مكانة ما ذكره إمام البلاغيين: "فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف ومقطوعاً موصولاً معاً"(١).

٧- اتسمت القصة بالإيجاز فى عرض أحداثها، فقد طويت أحداث كثيرة وخاصة بعد فاء الفصيحة فى قوله "فانطلقا"، وفى هذا إعمال الفكر وكثرة التأمل للاهتداء إلى تقدير المحذوف.

٨- تعددت أساليب التأكيد فى هذه القصة لتقرير الأحكام وزيادة الإقناع.

٩- تعددت أساليب الاستفهام وتنوعت دلالتها، فبعضها أفاد التقرير والعتاب، وبعضها أفاد الانكار والتعجب.

١٠- حفلت التراكيب فى القصة بأنواع من القيود كالتقييد بالشرط والتقييد بالصفة والحال والتمييز، وكان للقيد أثر كبير فى توجيه المعنى وإبراز صورته.

١١- بنيت بعض التراكيب على أسلوب تقديم ما حقه التاخير وكان للتقديم أثر واضح فى إظهار صورة المعنى وبيان موضع العناية والاهتمام.

---

(١) دلائل الإعجاز:/٢٣٨.

١٢- قلة الصور البيانية فى القصة، لأن المقام مقام تقرير الاحكام وإظهار الحقائق، ومن أبرز الصور البيانية صورة الجدار الذى يريد الانقضاض.

١٣- قلة المحسنات البديعية، وما جاء منها جاء لأن المعنى يتطلبه، كما فى الجناس الناقص بين "صبراً" و"خبرا".

١٤- أبرزت القصة أن علم الإنسان قاصر، وأن العلم بالنسبة للإنسان لا نهاية له، وعلى الإنسان أن يجتهد فى الاستزادة من العلم، وقد أمر الله سبحانه حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بالاستزادة من العلم، فقال سبحانه: ﴿ . .وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1].

١٥- كشفت القصة عن أخلاق طالب العلم، وما يجب أن يتصف به من صبر وعزيمة وتواضع، وخضوع للعالم، والاستسلام لأمره، كما كشفت عن صفات العالم من سعة العلم، والتعليل لما يذكره من أحكام، والرفق بطالب العلم، فلا يؤاخذه بما يصدر عنه من هنات.

١٦- هذه الأحداث التى وقعت فى هذه القصة ما هى إلا رمز لما يصاب به الإنسان من نوائب، ولما يبتلى به من فتن ومصائب، وعلى الإنسان ان يرضى بما قدره الله سبحانه، موقنا بأن ما قدره الله هو الخير فى الدنيا والأخرة، والله سبحانه أعلم

* * *

(١) سورة طه: /٢٣٨.

أهم المصادر والمراجع

١- الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى ، ط المكتبة الثقافية ، بيروت.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادى، ط دار الفكر للطباعة والنشر.

٣- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجانى، قراءة وتعليق / محمود شاكر، الناشر مطبعة المدنى بالقاهرة.، دار المدنى بجدة، ط أولى ١٤١٢ – ١٩٩١.

٤- أساس البلاغة، الزمخشري، ط دار الفكر، بيروت ١٩٨٩.

٥- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ابن المنير، حاشية على الكشاف، ط. مصطفى البابى الحلبى، ١٩٧٢.

٦- الايضاح فى علوم البلاغة، الخطيب القزوينى، تحقيق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر.

٧- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ط أولى، دار الفكر للطباعة والنشر.

٨- البرهان فى علوم القرآن، بدر الدين الزركشى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨.

٩- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد صقر، ط دار التراث، ط ثانية، ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣م.

١٠- التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان، شرف الدين الطيبى ، تحقيق د. هادى عطية، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية ، بيروت.

١١- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس.

١٢- التفسير الكبير – فخر الدين الرازى ، ط أولى، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١٣- تفسير البيضاوى، هامش على حاشية شيخ زاده، المطبعة العثمانية، تركيا.
١٤- تفسير القرطبى، ط دار الريان للتراث.
١٥- حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى، ط دار صادر، بيروت.
١٦- حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوى، المطبعة العثمانية، تركيا.
١٧- حاشية القونوى على تفسير البيضاوى، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجانى، قراءة وتعليق / محمود شاكر، نشر مكتبة الخانجى، القاهرة.
١٩- روح المعانى، محمود الألوسى،دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
٢٠- شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك، ط صبيح.
٢١- صحيح البخارى، ط مكتب الجمهورية العربية.
٢٢- عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكى، ضمن شرح التلخيص، مطبعة السعادة بمصر، ط ثانية، ١٣٤٣هـ.
٢٣- فتح البارى بشرح صحيح البخارى، ابن حجر العسقلاني، ط دار الكتاب الجديد، لجنة إحياء التراث الإسلامى.
٢٤- فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبى ، حاشية على الكشاف، ط جائزة دبى الدولية للقرآن الكريم، ط أولى ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م.
٢٥- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكرى، ط دار الكتب العلمية ، بيروت.

٢٦- الكشاف ، الزمخشري، ط مصطفى البابى الحلبى، ١٩٧٢م.
٢٧- لسان العرب، ابن منظور المصرى، ط دار المعارف.
٢٨- المثل الثائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق د/ أحمد الحوفى، د/ بدوى طبانة، ط دار نهضة مصر.
٢٩- المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات، ابن جنى، تحقيق على النجدى ناصف ، ودكتور عبدالحليم النجار، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ، ١٩٩٤م.
٣٠- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهانى، دار الفكر ، بيروت.
٣١- نتائج الفكر فى النحو، أبو القاسم السهيلى ، تحقيق د/ محمد ابراهيم البنا ، نشر جامعة قار يونس ، ليبيا ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
٣٢- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، البقاعى، نشر دار الكتاب الإسلامى ، القاهرة.

* * *